سلسلة الدراسات التاريخية (٤٣)

نظرات فى تاريخ غرب أفريقيا فى العصر الوسيط

أ.د. عزالدين عمر موسى

الطبعة الأولى ٢٠٢٥م

سلسلة الدراسات التاريخية (43)

نظرات فى تاريخ غرب أفريقيا فى العصر الوسيط

أ. د. عزالدين عمر موسى

الطبعة الأولى
2025م

نظرات فى تاريخ غرب أفريقيا فى العصر الوسيط

أ.د. عزالدين عمر موسى

الإيداع القانوني

...../2025م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 121566207 - 00249122094856
البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:
الطبعة الأولى - 2025م
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	7
الفصل الأول: البكري مصدرا لانتشار الإسلام فى غرب أفريقيا.	15
الفصل الثاني: قراءة في العلاقات المغربية الغرب إفريقية في العصر الوسيط	31
الفصل الثالث: المغرب العربي وغرب أفريقيا فى العصر الوسيط فى كتابات نقولا زيادة	57

تقـديم

لعل من أصعب قضايا تاريخ غرب أفريقيا مسألة "التحقيب" التاريخي لا سيما إذا اتبع الدارس النموذج الأوروبي القائم على حقب ثلاث ، هى القديم والوسيط والحديث، ذلك لأن المعلًومات المكتوبة لا تتوافر بصورة نسبية إلا عن "الساحل الأفريقي" الذى درج الدارسون المحدثون إطلاقه على منطقة قيام الدول فيه ومرتبطة بانتشار الإسلام وتجارة عبر الصحراء بخاصة مع الشمال الأفريقي .

واللافت للنظر إن هذا المصطلح لا يعبر تعبيرا دقيقا عن المناطق التى قامت فيها تلك الدول فباستثناء غانة القديمة وعاصمتها "كمبي صالح"إن الدول الأخرى قامت فى حزام السافانا الأفريقي ولها مدن رئيسة فيه ويتميز جلها بالأنهار مثل نهر النيجر مع مالي وسنغي ونهر " يو" وعليه برننغزرغمو عاصمة برنو. ثم إن هذه الدول لها مدن قواعد فى الساحل والصحراء.

إن عدم دقة المصطلح جعل الدارسين ينظرون لتلك الدول "دولا متحولة" بتحول مناطق إنتاج الذهب جنوبهم، وتحولها من الغرب إلى الشرق، وبه فسروا التتابع الجغرافى لغانة ومالي ثم سنغي.

إن هذا المنظور لم يسعف لتوضيح ثلاث قضايا مهمة فى تاريخ المنطقة فى هذه الفترة . أولا ، الهجرات. ثانيا ، الزراعة والرعي خاصة فى سنغي وممالك الهوسة السبعة وبرنو . ثالثا، الحياة الفكرية والثقافية المزدهرة فى تصاعد ابتداء من القرن الخامس عشر ولها صبغتها الإسلامية، وعلاقتها تشابها أو تداخلا مع مناطق حزام السافنا الأفريقي.

ولقد تناولت من قبل جوانب من هذه الموضوعات فى كتابي "دراسات إسلامية غرب أفريقية" أو مقالات علمية متخصصة منشورة .ومازالت الحاجة ماسة لتناول ذلك المنظور ومرتكزاته بإعادة قراءته أو توسيع مواعين معلوماته لمحاكمة المنظور ومرتكزاته على ضوئها .ولعله من المفيد مراجعة الأمر من ثلاثة مرتكزات رئيسة فى ذلك المنظور ، وهي الإسلام والدولة وتجارة عبر الصحراء وإفرازاتها .

ومما يسر إعادة هذه القراءة أن مصادر هذه الفترة متنوعة ومتعددة ومتكاثرة تصاعديا . وصنفها لفسكي إلى ثلاثة أنواع؛ أولا ، مصادر مكتوبة خارجية. ثانيا،مصادر مكتوبة داخلية. ثالثا، روايات شفوية كتبت متأخرة عندما شرع الدارسون الغربيون المحدثون فى بحث هذا التاريخ من أمثال ليفتزيون وفلكس وهنويك ثم تولاه دارسون من أهله على قمتهم عبدالله إسمث .

ويستطيع الناظر فى هذه المصادر أن يميزبين فترتين متباينتين يفصل بينهما القرن الخامس عشر الميلادي. الأولى، مصادرها مكتوبة، وهي خارجية معظمها مصنفات الجغرافية التاريخية عند المسلمين وبصفة خاصة كتب المسالك. أما الثانية فإن جل مصادرها المكتوبة داخلية وتنطلق إبتداء من القرن الخامس عشر الميلادي فيما رجحت مع كتاب الفتاش للكعتي فى دراستي بالانجليزية عن قيام علم التاريخ عند مسلمي غرب أفريقيا . ومما يلفت النظر فيها تنوع الأصناف التاريخية بخاصة مع السعدي وأحمد بابا التمبكتي والمغيلى ويذهلك ذلك التنوع فى بورنو وتراثها المكتوب بخاص "المحارم". وقد اعتنى بذلك Palmer عناية فائقة.

إن هـذا الزخـم مـن المعلومـات ييسـر الطريـق لمـن يريـد إعـادة قـراءة ذلـك المنظـور القائـم علـى الإسـلام والدولـة وتجـارة عبـر الصحـراء.لقـد قمـت بهـذا السـعي فـى بحثيـن رئيسـين أقدمهمـا هنـا، وفـى تكاملهمـا يلقيـان بعـض الضـوء علـى تعـدد عوامـل قيـام الـدول فـى منطقـة الدراسـة، ويبينـان أن التواصـل بـين منطقـة الدراسـة والمغـرب فيـه جوانـب حضاريـة وثقافيـة أوسـع وأعمـق وأكثـر دوامـا ممـا تحملـه التجـارة.

المبحـث الأول: "البكـري مصـدرا لانتشـار الإسـلام فـى غـرب أفريقيـا". وأصلـه ورقـة قدمـت فـى نـدوة الإسـلام وأفريقيـا نظمهـا مركـز الدراسـات والبحـوث فـى جامعـة أفريقيـا العالميـة فـى 2006 م وكانـت دراسـة أوليـة غيـر أن المناقشـات والقـراءات التاليـة أكدتهـا وأصبحـت نهائيـة .

وأبـو عبيـد البكـري مـن رجـال القـرن الخامـس الهجـري/ الحـادي عشـر الميلادي، وأورد أقـدم معلومـات عـن درجـة انتشـار الإسـلام وعلاقتـه بالدولـة فـى منطقـة الدراسـة. وتبـين منهـا أن هنـاك خمسـة أنمـاط أو أنسـاق متباينـة ممـا أثبـت التنـوع فـى تلـك العلاقـة وفتـح الطريـق للنظـر فـى العوامـل الداخليـة، وأثـار غبـارا كثيفـا علـى أفـكار للدارسـين المحدثـين التـي أصبحـت عندهـم مسـلمات، منهـا الإسـلام المحـارب والمجتمعـات المتجزئـة والتجـارة الصامتـة وغيرهـا. وعليـه يجـوز القـول إن مسـالك البكـري أقـدم مصـدر عـن طبيعـة انتشـار الإسـلام فـى غـرب أفريقيـا ويقـدم معلومـات تسـعف علـى إعـادة النظـر فـى ذلـك المنظـور.

أمـا **المبحـث الثانـي** فهـو سـعيي لإعـادة قـراءة العلاقـات المغربيـة غـرب الأفريقيـة، وأصلـه ورقـة قدمـت فـى نـدوة فـى كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية،جامعة الحسـن الثاني،الـدار البيضـاء فـى أكتوبـر 2000موهـو بحـث

معتمده دراستي فى المنطقتين القائمة على مصادر متنوعة ومن ثم جاءت النتائج مهمة فى تغيير النظرة فى ذلك المنظور القديم.

نعم قامت العلاقات فى المبتدأ على تجارة عبر الصحراء غير أن ثقل طرقها متغير من الغرب إلى الشرق بتغير مناطق الذهب فى غرب أفريقيا. إلا إن المعلومات المتوافرة فى حركة السكان والفكر والثقافة أوضحت أن هناك الكثير الحضاري الدائم،

من هذا إن عصر التكوين للثقافة العربية الاسلامية فى غرب أفريقيا مغربي بامتياز مع أن ثقل تجارة عبر الصحراء انتقل من طرقها الغربية إلى الطرق الوسطى ثم الشرقية.

وأفرز هذا التمازج الحضاري تلاقحا لغويا وفكريا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا. وكانت العلاقات قائمة على التعاون والتعايش لا العداء والتخاصم. ولم يختل الميزان إلا مرة واحدة مع غزو السعديين لسنغي ولم يجدوا مبتغاهم لأن التجارة العالمية تغيرت دروبها.

لقد استبصر د. نقولا زيادة بعلمه الموسوعي وذكائه الفطري وفهمه الشامل ومنطلقه العروبي أن المنظور الحضاري أنجع من المنظور الثلاثي الأضلاع لفهم علاقات المغرب وغرب أفريقيا فى العصر الوسيط واستيعاب تاريخيها فى الفترة ذاتها . ولهذا لم يقف عند الأبحاث العلمية لنشر علمه وإنما ذهب إلى الوسائل الإعلامية فى زمانه من مقالات صحفية وأحاديث إذاعية وتلفزيونيه. لهذا ختمت هذه النظرات ببحثي عن "المغرب العربي وغرب أفريقيا فى العصر الوسيط فى كتابات نقولا زيادة " لأنه يعبر أصدق تعبير عن المنظور الحضاري فى دراسة تاريخ غرب أفريقيا فى فترة النظرات هذه.

وختاما لابد من شكر د عبد المنعم المكي لقراءته لمقاطع من هذه النظرات وأستاذ هشام شاهين لطباعته الأصول . والشكر أجزله للبروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد الذى بادر، كالعهد، به لنشر هذا الكتاب في مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر و دارهم دار آريثيريا للنشر والتوزيع للنشر التى أصبحت دارا مرموقة يشار إليها بالبنان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين على توفيقه.

عزالدين عمر موسى

أنديانا، أمريكا

9 مايو 2025م

الفصل الأول

البكري مصدراً لانتشار الإسلام في غرب إفريقيا

الفصل الأول

البكري مصدراً لانتشار الإسلام في غرب إفريقيا

(نظرة أولية)

أن المعلومات عن انتشار الإسلام في «غرب إفريقيا» نادرة وقليلة في القرون الثلاثة الأولى بعد إتمام فتح المغرب من أن التجارة كانت مستمرة وغير يسيرة. فهناك إشارة إلى غانا أرض الذهب مع الفزاري في القرن الثاني/ والثامن... وتزيد المعلومات قليلاً عنها وعن كوكو في القرن الثالث/ والتاسع مع كل من الخوارزمي (ت بعد 847/232) واليعقوبي (ت 897/284)، ثم تزداد المعلومات عن غانة وكوكو وعن طريق الصحراوية المسلوكة مع كل من ابن الفقيه (صنف كتابه سنة 903/290) وابن حوقل الذي كتب مصنفه في سنة 977/366.[1]

ولكن من يُمن الطالع لدراسة انتشار الإسلام في «غرب إفريقيا» أن يتوفر أول وأوسع مصدر من مصادر الجغرافية التاريخية الإسلامية الخارجية، ذلكم هو مصنف أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري.. وإذا كان أكثره قد ضاع فالموجود منه يغطي منطقة الصحراء الغربية وما يجاورها من «البلاد السودانية» التي هي موضوع هذا العرض.. ثم إن أبا عبيد تحدر من أسرة أندلسية ذات أصالة ونباهة وشرف ورئاسة، ولئن فقدت دورها السياسي فقد استمر ابنها أبو عبيد مشاركاً في فترة الاضراب

السياسي، فعمل وزيراً لصاحب المرية، ثم وزير للمعتمد صاحب إشبيلية، وأخيراً لما بسط المرابطون نفوذهم على الأندلس استقر في قرطبة إلى أن توفى عام 487/ 1094.. فهكذا شارك أو شهد أو عاصر أحداث المرابطين الكبرى التي تهم هذه الدراسة، من ظهورهم في الصحراء إلى خروجهم إلى المغرب الأقصى ثم إلى دخولهم الأندلس. وعلاوة على هذا فقد تتلمذ على العذري (ت 478 / 1085) الجغرافي الاندلسي الشهير. كما استفاد من الكتب الجغرافية المفقودة التي صنفها محمد بن يوسف الوراق، القيرواني الأصل القرطبي الاستقرار والوفاة (ت 973/362).

والحالة هذه فإن مصنف البكري يمثل ركناً رئيساً في معرفة انتشار الإسلام في «البلاد السودانية» المصاحبة لديار المرابطين إلى سنة 1067/460 وهو آخر تاريخ ذكره في متن كتابه. [2] ويمكن الاطمئنان إلى معلوماته عنهم لأنه لم يسع لتضخيم دورهم في «البلاد السودانية» مع أنه أبرز جهودهم في الصحراء والغرب، مع تقريط ظاهر، ومدح واضح. [3] والناظر في المعلومات التي يوردها البكري يجد معظمها يرجع إلى فترة سابقة لما يقال عن إسقاط المرابطين لمملكة غانا، ويستطيع الناظر نفسه أن يميز فيها بين عدة أنماط أو أنساق في انتشار الإسلام في منطقة الدراسة، وهي:

أولاً: مدن تجارية في أطراف الصحراء الغربية قريبة من «الساحل». وأغلب سكانها من تجار الصحراء ودار الإسلام، لا سيما، المغرب وإفريقية.. وهنا تبرز أودغست مركزاً تجارياً متفرداً.. فهي مدينة كبيرة آهلة، وسكانها من عناصر شتى ومناطق مختلفة، فهم من «أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، وهم أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار»[4].. ويصفهم في موضع آخر بأنهم من زناتة العرب [5]، ويقول: وسكانها مسلمون «فيها جامع ومساجد

كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن» [6]. وتشاكلها تادمكا نسبياً [7] وولاتا بصورة كبيرة. ويقول لفتزيوم عن ولاتا أنها حلت في القرن السابع / والثالث عشر المركز التجاري لمدينتي غانا وأودغست [8]، بينما يؤكد السعدي ازدهارها قبل ذلك التاريخ، ويدعوها بير، ثم يتحدث عن تحول الناس عنها تدريجياً إلى تنمبكتو حتى حلت الأخيرة محل ولاتا في القرن السابع / الثالث عشر. ويقول عن تركيبة البلد السكانية «وإليه يرد الرفاق من الآفاق، وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد، من أهل مصر ووجل] أوجلة [وفزان وغداس وتوات ودرعة وتفلالة] تفلاليت [وفاس وبيط إلى غير ذلك، ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلاً قليلاً حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها، فكانت عمارة تنبكت خراب بير»[9].

وهذا النمط جاء أهله من خارج «البلاد السودانية» تجاراً مسلمين، فكانوا وسيلة نشر الإسلام بين من نزلوا بينهم أو عاشوا حولها.

ثانياً: بلاد حكمها سودان أسلموا، وحملوا أهلها ومن جاءهم على الإسلام حملاً.. من هذا مدينة تكرور التي كان ملكها وارجابي بن رابيس (ت 432/1040) على «مجوسية» قومه «فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، حملهم عليها، وحقق بصائرهم فيها». ومثلها مدينة سلى المجاورة لها والتي أسلم أهلها على يدي وارجابي وصاروا يحاربون الكفار الذين يلونهم [10].

وقد وجد في هذا النمط أصحاب نظرية الإسلام المحارب (Militant Islam)، القائلة بأن الإسلام انتشر في المنطقة بحد السيف دليلاً على قولهم، وألحقوا به حركة المرابطين. [11]

ثالثاً: بلد يسلم ملكه ورعيته غير المسلمة، ومثاله إسلام ملك ملل المسمى بالمسلماني، وجاء إسلامه نتيجة استسقاء رجل مسلم صالح عام جدب شديد،

ولما استجاب الله له، وارتوت الأرض بدعائه، أعلن الملك إسلامه وأمر « الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشتركون»[12]. أما المثل الآخر لهذا النسق، فهو من مدينة ألكان (Alukan)، إحدى ولايات مملكة غانا. ويذكر البكري عن ملكها قنمر بن بسي «يقول إنه مسلم يخفي إسلامه».[13]

وهذا النمط يوضح أنه ليس بالضرورة أن يسلم الملك فتسلم رعيته.. وهو خير دليل على عدم إكراه الرعية على الإسلام، وان انتشاره لا يدور مع السلطة السياسية وجوداً وعداً.

رابعاً: بلد مسلم، ملكاً ورعية، وما حوله من المناطق مشركون. ويمثل هذا النمط مدينتا يرسني وكوغة، والأخيرة من أعمال مملكة غانا، يقول عنها البكري: «وهي أكثر بلاد السودان ذهباً».

ويشير هذا النمط في وضوح إلى أن الإسلام وإن بدأ مع التجارة لم يلبث أن أنتشر في الشرائح الاجتماعية طولياً وأفقياً، الأمر الذي يدحض مفهوم المجتمعات المتجزئة (Segmentary Societies) الذي توكأ عليه بعض الدارسين فقالوا بأن الإسلام إذا انتشر في طبقة الحكام وحلفائهم التجار لا يبشر في الطبقات الأخرى. [15]

خامساً: حاكم غير مسلم والإسلام فاشٍ بين رعيته ومؤثر في إدارة دولته مثل غانا التي تتكون عاصمتها من مدينتين.. مدينة يسكنها المسلمون في أعداد كبيرة، وحركتهم العلمية ناشطة، فيها اثنا عشر مسجداً، أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون الراتبون، «وفيها فقهاء وحملة علم». ويعتمد ملكها في إدارته على المسلمين على عظم سلطانه، فقد بالغت بعض الروايات وجعلت جيشه في مائتي ألف، ومع هذا فتراجمته وصاحب المال وأكثر وزرائه مسلمون. [16]

ويبدو أن غيارو من هذا النمط الخامس، ذلك لأن البكري يصفها بأنها بلد الذهب «عامرة واسعة، متصلة العمران، وفيها من المسلمين كثير». [17]

وأغلب الظن أن هذا النمط يمثل التحول التدريجي البطئ من مجتمع ودولة غير مسلمتين إلى مجتمع مسلم أولاً ثم دولة مسلمة أخيراً، فجاءت أسلمة الدولة بعد المجتمع.. وربما كان حال كوكو قبل القرن الخامس / الحادي عشر على هذه الصفة، وهي عاصمة سنغي، وخارج نطاق تأثير الحركة المرابطية، وتحكمها أسرة ديا (Dia).. وكانت العاصمة تتكون من مدينتين: مدينة الملك ومدينة المسلمين، وكثير من الرعية غير مسلمين.. ثم أصبح الملك مسلماً.. وغدوا لا يملكون غير المسلمين. [18]

إن مثل هذا التأويل ربما ساعد على تفسير ما يرويه ابن فاطمة في القرن السادس / الثاني عشر من حكام غانا وقتها مسلمون، ويدَّعون نسبة علوية.. [19] وربما حدثت أسلمة للدولة بعد أن عم السلام أرجاء مملكتهم.. وهذا الاستنتاج يثير شكاً مبرراً في مسألة سقوط مملكة غانا على أيدي المرابطين. فيجوز القول إنها انتهت بعد أن تغيرت من دولة وثنية إلى دولة مسلمة.

تفضي هذه الملاحظات عن انتشار الإسلام إلى عدة نتائج مهمة تساعد على إعادة تقييم عوامل انتشار الإسلام في «البلاد السودانية» وطبيعته ومداه:

أولاً: لقد انتشر الإسلام في مناطق هذه الدراسة في تخوم الصحراء ومناطق الساحل ووصل إلى المنطقة الاستوائية حيث مناطق الذهب. وكان البكري كلفاً بذكر أماكن غير المسلمين فيها، وأحياناً يشير إلى إكرامهم لهم أو علمهم بشرائع الإسلام. [20] وهذا الاتصال المباشر يدعم حجج الناقدين لما يسمى بالتجارة الصامتة في مناطق الذهب. [21]

ثانياً: لئن بدأ الانتشار مع التجار من عرب وبربر فإن إسلام الناس حفَّز إسلام الحكام.. وإسلام الحكام ساعد على توسيع نطاقه بين رعيتهم.. وفي الحالتين كان الانتشار سلمياً وليس بآليات السلطة السياسية الغالبة، وفي أكثر الحالات كان إسلام الحكام نهاية المطاف لا بداية للظاهر، والقول ذلك مع وضوح الحقائق، تشبث بالنظرية التي تجعل دور العوامل الخارجية حاسماً في الظاهرة التاريخية.. وكأن التطورات الداخلية لا فعل لها، ولا تعد في نظرهم إلا عاملاً مساعداً. وفي هذا عودة إلى الفرضية الحامية التي تجعل كل شيء إيجابي إنما هو مجلوب. [22]

ثالثاً: وضح أن الإسلام لم ينتشر أفقياً في طبقة واحدة، وإنما جاء انتشاره شاملاً لكل شرائح المجتمع، وفي المدينة والبادية معاً.. ويدل هذا على بطلان ما ذهب إليه القائلون بمفهوم المجتمعات المتجزئة وانتشار الإسلام بين الطبقات المسيطرة، ويبقى ببقائها، ويغدو خليطاً من الإسلام والديانات التقليدية بذهاب تلك الطبقات أو ضعفها.

رابعاً: إن هذا الانتشار الواسع نسبياً، وتعدد مشاربه، في «البلاد السودانية» مقارنة بما كان في صحراء المرابطين يدعو إلى التساؤل هل كانت المنطقة بحاجة لنشر الإسلام فيها، خاصة وأن ظاهرة هذا الانتشار حدثت، وفي الفترة ذاتها، وفي الوقت ذاته، في منطقة بعيدة عن تأثيرات قبائل المرابطين، مثل كوكو (سنغي) وبلاد الهوسا وأرض الكانم!! [23]

إن معلومات البكري عن انتشار الاسلان في غرب إفريقيا، وتنميطها وتصنيفها، وهي أوسع معلومات حتى القرن الخامس / الحادي عشر، تسمح بإعادة قراءة حركو الإسلام في غرب إفريقيا في ضوء جديد، يكشف عن ضعف كثير من المفاهيم التي أثرت على دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية

التاريخية، خاصة عن أصحاب الأفريقيات والدراسات الأنثروبولجية؛ مثل التجارة الصامتة ومفهوم المجتمعات المتجزئة، ومفهوم الفرضية الحامية، ذلك لأن المعلومات أوضحت أن العوامل الداخلية كانت أبلغ أثراً من العوامل الخارجية، وأن الحاكم قد يسلم وتسلم رعيته، وقد يسلم ولا تسلم رعيته، وقد تسلم الرعية ثم يأتي إسلام الحاكم، ومن ثم وجب التمييز بين انتشار الإسلام وأسلمة الدولة من جهة، وأسلمة المجتمع من جهة أخرى، وهذا ما يلقى بظلاله على طبيعة دور المرابطين ودولة تكرور، وكلاهما من الحركات الإصلاحية التي توجهت أساساً إلى مجتمعات مسلمة، وسعت لأسلمة الدولة والمجتمع، أكثر من توجيههما بخطابهما إلى مجتمعات غير مسلمة، سيما وأنهما امتداد لحركة تغيير سني شمل العالم الإسلامي بأسره، مع السلاجقة والأيوبيين في المشرق في القرنين الخامس – السادس / الحادي عشر – الثاني عشر على التوالي، تماماً يماثل ما حدث من المرابطين ثم الموحدين في المغرب.

الهوامش

(1) أنظر مثلاً ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، بريل، ليدن، 1885م، ص 80؛ اليعقوبي، أبو أحمد بن يعقوب، كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن، 1892م، ص 345، ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي، معجم البلدان، باعتناء وستنقلد، ليبزج، 1866م، جـ 4، ص 329.

(2) البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دي سلان، الجزائر، 1857م، ص 174.

(3) أنظر مثلاً ص 164 وما بعدها.

(4) المصدر نفسه، ص 158.

(5) المصدر نفسه، ص 168.

(6) المصدر نفسه، ص 181 – 182.

(7) المصدر نفسه.

(8) N. Levtzion, **Ancient Ghana and Mali**, New York, African Publishing Company, 1980, p.161.

(9) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله، تاريخ السودان، باعتناء هوداس، باريز، 1964م، ص 21.

(10) البكري، ص 172.

(11) تناولت هذه المسألة في دراسة أخرى، أنظر عنها.

I.U. Musa, "on the Nature of Islamization and Islamic Reform in Bilad as – Sudan Up to Sokolo Jihad, Dirasat, Amman, the Umiresity of Jordan, 1979, V. No. 1, esp. pp. 1–2.

(12) البكري، ص 178.

(13) **المصدر نفسه**، ص 179.

(14) **المصدر نفسه**، ص 177، 179.

(15) أنظر عن المناقشة لدعاة هذا القول I.U.A. Mousa, OP. CTT, p 12

(16) البكري، ص 175، 177.

(17) المصدر نفسه، ص 177.

(18) المصدر نفسه، ص 183.

(19) أنظر ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق العربي، بيروت، 1970م، ص 92.

(20) البكري، ص 2 – 173، 184.

(21) عن آراء القائلين بذلك أنظر مثلاً:

A.G. Hopkins, **An Econonmic History of West Africa**, London, 1973, p 67, L. Sundstrom, "The Trade of Guinea", **Studia Ethnographica Upsaliensia**, XXIV, 1965, p. 22 – 31.

(22) لنقد هذا الافتراض أنظر:

J. Greenberg “The Negro Kingdoms of the Sudan”, Transactions of the New York Academy of Sciences, Ser. II.V.XI, No. 4 (1949).

(23) أنظر 14 – 13 I.U. Mousa, Op. Cit والمصادر المذكورة.

المصادر والمراجع

(1) البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق سلان، الجزائر، 1857م.

(2) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت..

(3) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله، تاريخ السودان، باعتناء هوداس، باريز، 1964م.

(4) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي، كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري، 1970م.

(5) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غوية، ليدن، 1885م.

(6) ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي، معجم البلدان، باعتناء وستنفلد، ليبزج، 1866م.

(7) اليعقوبي، أبو أحمد بن يعقوب، كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن، ليدن، 1892م.

(8) J. Greenberg, "The Negro Kingdoms of the Sudan" **Transactions of New York Academy of Sciences**, Ser. II, V.XI No. 4 (1949).

(9) A.G. Hopkins, **An Econonmic History of West Africa**, London, 1973.

(10) N. Levtzion, **Ancient Ghana and Mali**, New York, African Publishing Company, 1980.

(11) I.U. Mousa, "on the Nature of Islamization and Islamic Reform in Bilad as – Sudan Up to Sokolo Jihad, **Dirasat,** Amman, the Umiewesity of Jordan, 1979, V. No. 1.

(12) L. Sundstrom, "The Trade of Guinea", **Studia Ethnographica Upsaliensia**, 1965, V. XXIV.

الفصل الثاني

قراءة في العلاقات المغربية الغرب إفريقية في العصر الوسيط

الفصل الثاني

قراءة في العلاقات المغربية الغرب إفريقية في العصر الوسيط

إن تاريخ التواصل الحضاري بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء يعود إلى قرون عديدة قبل ظهور الإسلام. وكانت الصلات ضعيفة متفرقة وغير مباشرة [1]، وإليها تشير رسوم المركبات على الصخور، وبناء على ذلك يجوز التصديق بما يقوله هردوتس (Herodotus) عن تجارة القرطاجنيين في الذهب مع غرب إفريقيا [2] على الرغم من صعوبات المواصلات عبر تلك الصحراء الواسعة القاحلة المستغرق المسير بين ساحليها عدة شهور.

بيد أن انقلاباً كبيراً في إيقاع تلك الصلات وتكاثرها قد وقع مع دخول «الجمل» في الصحراء الكبرى في القرن الأول الميلادي [3]. وليس هناك معلومات تفصيلية عن تلك الصلات قبل دخول المنطقة شمال الصحراء في الإسلام ... ومن وقتها بدأت المعلومات تتزايد قرنا بعد قرن إلى أن تصل ذروتها في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بفضل المصادر الإسلامية « الخارجية»[4]، خاصة الجغرافية التاريخية، ثم ظهور مصادر تاريخية محلية غرب افريقية متنوعة، علاوة على ما توفره الروايات الشفوية المتداولة جيلا بعد جيل وإن أخذت طابع الأسطورة في كثير منها.

ويعطي هذا الفيض النسبي من المعلومات الناظر فيها انطباعاً بأن الصحراء لم تكن حائلاً ولا حاجزاً بين ساحليها، فقد توحدت المنطقة

حضارياً، فكانت حركة السكان مستمرة، فتمازجت عناصرها، وتلاقحت لغوياً وفكرياً واجتماعياً، وتأثرت دينياً وتشابكت مصالحها اقتصادياً. فأفرز كل هذا تيارات وظواهر إيجابية وأخر سلبية إلا أن أغلب الدراسات الحديثة عمقت الأخيرة ورسختها، وهمشت الأولى وأقصتها [5]

ورسمت تلك الدراسات صورتين مختلفتين لمنطقتين متمايزتين، إحدهما شمال الصحراء، عربية إسلامية، والثانية جنوب الصحراء، إفريقية ذات ديانات تقليدية؛ والعلاقة بينهما علاقة عداء وتخاصم لا علاقة تعاون وتناغم. والمنطقة الأولي مستعلية على الثانية، مخضعة لها سياسيا متغلبة عليها بالفتح والهجرات الجماعية، وصابغة لها دينياً قهراً، فارضة الإسلام فتحاً أو بالسلطة الغالبة، مستنزفة لها اقتصادياً بتجارة عبر الصحراء، ومستذلة لها اجتماعياً بالرق وتجارته. وكثيراً ما يضرب المثل على هذه التصورات بدور المرابطين في نشر الإسلام في البلاد السودانية في أوسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي [6] والحملة العسكرية السعدية التي أسقطت دولة الأسكيا في سنغي سنة 999هـ/1591م [7]. فهل كانت العلاقات بتلك الصورة المتوترة التي رسمتها الدراسات الحديثة؟

من نافلة القول إن تلك العلاقات قامت على مصالح بين المنطقتين، المغربية و«السودانية».. وهي مصالح اقتصادية أساساً، والتجارة هي المظهر الرئيس فيها، إن لم يكن الوحيد.. والتجارة هي السابقة وبقية الصلات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية لها لا حقة.. والحالة هذه إن أراد المرء إدراك كنه تلك العلاقات عليه أن يستبصر متى وأين توافقت تلك المصالح ومتى تضاربت.. ووجب تحديد هذين المصطلحين وفقا لاستخدامها إجرائياً في هذه المداخلة..

يستخدم مصطلح «المغربية « هنا ليعني المغرب الأقصى والصحراء الغربية التي يحدها من الشمال خط يبدأ من نول لمطة على المحيط، ويعبر إلى سجلماسة، وينتهي عند وركلان.. ويحدها من الجنوب خط يمتد من المحيط إلى أودغست ثم تاد مكة شرقاً.. والمدينة الأخيرة تصاقب وركلان في الشمال.. فيمثلان حد المنطقة الشرقي.. وكانت هذه الصحراء بهذه الحدود المعبر التجاري الرئيس في فترة الدراسة هذه. ولقد وضح في دراسة سابقة أن محور سجلماسة تاهرت كان منه مخرج تلك التجارة إلى سواحل الرستميين الغرب الأوسط الأقصى، ثم انفردت سجلماسة بربط تجارة عبر الصحراء بعالم البحر المتوسط بعد سقوط دولة الرستميين [8].

ولا يبعثن هذا القول على الظن بأن الصحراء الوسطى (الافريقية الليبية) لم تكن بشيء في هذه التجارة في هذه الفترة.. لقد كان دورها فيها ثانوياً إلا في عصور الاضطراب، وما بدأت تحتل المكانة الرئيسة المتميزة إلا مع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي باختلاف مناطق إنتاج الذهب ومخارج تجارته الصحراوية، وسيجري بيانه لا حقاً...

أما من حيث المحدد الزمني فتفتتح الدراسة بالقرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي الذي معه بدأت المعلومات عن تلك التجارة بالظهور في المصادر الإسلامية من خارج «البلاد السودانية».. وتنتهي الدراسة مع نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إذ بدأ الطرفان، المغربي و«السوداني» يفقدان تدريجيا دورهما في ربط المنطقة بالتجارة العالمية، وشرع الأوربي الناهض المتمدد مع الكشوف الجغرافية يحل محلها، فتوجهت التجارة من مناطق الإنتاج الاستوائية إلى ساحل خليج غينيا بصورة رئيسة، ودخلت تجارة عبر الصحراء في مرحلة ضمور يزداد قرنا بعد قرن..

لقد حكم عاملان أساسيان العلاقات المغربية « السودانية « الاقتصادية في العصر الوسيط؛ أولا مناطق إنتاج الذهب في منطقة الغابة الاستوائية في الجنوب، ثانيا، قرب الطريق الواصل بين تلك المناطق وعالم البحر المتوسط. واستناداً إلى المعلومات المتوافرة، أمكن استخراج صورة واضحة القسمات للطرق التجارية الرابطة بين المنطقتين والتغيرات التي حدثت فيها نتيجة للعاملين المذكورين، وتوضحها الخارطة رقم (1) المرفقة بهذا العرض..

ويتضح من هذه الخارطة أن هناك ثلاثة أنماط متتابعة للطرق التجارية الصحراوية من حيث الزمان، وتختلف قليلاً أو جذرياً من حيث المكان.. وهي:

النمط الأول: ساد هذا النمط في الفترة من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.. ومحوره الرئيس خط أودغست – سجلماسة.. ذلك لأن الذهب يستخرج من منطقة بَمْبُك (Bambuk) في الحوض الأعلى لنهر السنغال إلى جنوبي مملكة غانة مباشرة.. بيد أن غانا لم تكن لها سيطرة مباشرة على المنطقة، ولهذا وجد الذهب طريقا آخر إلى غاو (كوكو) ومنها إلى واحات المغرب الأوسط وإفريقية وليبيا، مثل ورجلان وغدامس وزويلة وأوجله. والراجح أن حجم تجارة الذهب عن هذا الطريق لم تكن كبيرة مثل ما كان عليه الحال مع غانا التي اشتهرت وملوكها به، بينما لا تجد شيئا من ذلك مع غاو وملوكها في سائر العصور [9].

وهنا لا يذكر أمر يشير إلى توتر العلاقات إلا مع المرابطين، وأحسب أن علاقاتهم «بالبلاد السودانية « خاصة غانا من أكثر موضوعات الحركة

المرابطية تعقيداً، ذلك لأن الدوافع الاقتصادية والعرقية والدينية تتداخل وتتقاطع في منحنيات كثيرة، فتتصادم حينا وتتلاقى أحيانا لأن العناصر المكونة لكل من الطرفين غير متجانسة، فهناك مساحات لقاءات واختلافات بين عناصر المرابطين الأساسية، لمتونة وجدالة ومسوفة، وهذه وعناصر الفقهاء في المغرب الأقصى والقيروان.. ومثل هذا تجده بين العناصر السودانية، لا سيما التكرور وغانا..

وإعادة بحث الدليل الموجود في المصادر الإسلامية والسودانية المكتوبة والروايات المتداولة شفوياً [10] يثبت بجلاء أن الحركة المرابطية في جوهرها لم تكن متصادمة مع دولة غانا الوثنية إلا بقدر تصادم جدالة مع تكرور المسلمة.. والسبب في الحالة الأخيرة ربما مرده إلى ضغط بدو الصحراء على الساحل نتيجة للجفاف الذي انفرد ابن الأثير بذكره [11].. بينما يمثل الأول امتداد صراع لمتونة مع غانا للسيطرة على أودغست مدخل تجارة عبر الصحراء.. لقد احتلت غانا أودغست في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأعادها تين يروتان زعم لمتونه منها.. وأخيراً عادت لمتونة وسيطرت عليها مع المرابطين في عام 446هـ/1054م. وهذا صراع يمثل تمسك الدول السودانية الكبرى بالسيطرة على مداخل تجارة الصحراء.. وسيكون موجهاً لسياسة تلك الدول ومصدر مشاكل حقيقية لها.

واللافت للنظر أن المرابطين بعد ذلك توجهوا شمالاً مع أن البواعث الاقتصادية والجغرافية كلها تدفعهم إلى التوسع جنوبا على حساب غانا، ولم يفعلوا لأن حركتهم حركة تجديد سني بدأت تنتظم سائر بلاد المسلمين، وما هم إلا جزء من ذلك التيار، فيمموا شطر مجتمعهم الصغير ومجتمع المسلمين الكبير مصححين له أو مدافعين عنه.. ولهذا من المستغرب أن يقال

بأنهم فتحوا غانا اعتماداً على رواية متأخرة بقرن، هي رواية الزهري.. وهذا حدث هم لا يمكن لرجل مثل البكري المعاصر لهم، وقد رصد أحداثهم وعاشها أن يغفله ولا يذكره.. علاوة على أن المصادر كلها ظلت تذكر غانا دولة قائمة بعدهم.. والمصادر السودانية المكتوبة والشفوية تذكر انهيار دولة غانا في القرن الذي بعد ذلك، وترجعها لأسباب اقتصادية، تتمثل في نضوب الذهب ثم التصحر، فانهارت الدولة سياسيا فأخضعها شعب الصوصو (Sosso).

ومن هنا يجوز القول بأن الفترة لم تشهد غير توتر اقتصادي محدود.. وليس صداما واسعا غير معهود.. ولم تكن بواعثه دينية ولا عرقية.. ودراسة التحالفات التي تمت عن ذلك تفصح وتبين.. ولا أدل على ذلك غير تدفق التجارة السودانية إلى المغرب الأقصى حتى عندما عزل عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحدي في حملته طويلة الأعوام السهول الأطلسية عن المداخل الصحراوية، فبحث المرابطون عن طريق صحراوي غير مطروق، قليل ماؤه، ولا يسلك إلا بدليل.. فهو شاق وعر خطر، وربطوا به اضطراراً البهنسا ومصر في سنة 530هـ/1136م.

النمط الثاني: بدأ هذا النمط بالظهور في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتسيد الفترة إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.. وفيه تحولت الطرق الرئيسة شرقا لأن منطقة إنتاج الذهب في برِ (Bure) في منطقة نفود مالي على أعالي نهر النيجر. وكان إنتاجها في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي يساوي ثمانية أضعاف ما كان يستخرج في بَمْبُك الغانية والذي نضب معينه وقتئذ.. والطريق الرئيس من مالي إلى ولاتا التي قامت باندثار كومبي صالح (غانا) وضعف مكانة

أودغست.. ومن ولاتا إلى معادن الملح خاصة تغازا ثم إلى سجلماسة.. ثم استفادوا من النقل النهري فانتعشت جنى وقامت تمبكتو التي حلت مكان ولاتا تدريجيا.. بيد أن هذا التطور أنعش غاو، فازدهر خط شرقي منها إلى تاد مكة فزويلة ثم أوجلة ومنها إلى أجدابية أو إلى مصر صحراويا.. علاوة على طريق آخر من غاو إلى تغده فأغدس ثم يلتقي مع الطريق السابق عند زويلة..

وعلى الرغم من أن هذا الطريق الشرقي قد استخدم في الحج إلا أن الطريق الغربي ظل أقصر لقربه من مناطق الإنتاج ولتوافر معادن الملح فيه، وقلة مخاطرة ووضوح معالم مفازاته.. ولهذا ظل محور ولاتا تمبكتو- سجلماسة أهم تلك الطرق.. وتمتنت علاقة مالي بالمغرب بالتهادي بين الحكام وإرسال السفارات.

بيد أن معادن برِ لم تدم طويلا، فما لبث أن قل انتاجها في العقود الأخيرة من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.. وربما يفسر هذا أزمة الدينار الموحدي والدينار اليوسفي الأيوبي في تلك الفترة ذاتها. وكانت أزمة الأول أكبر لأن الموحدين قد واجهوا صعوبات كثيرة في التجارة الخارجية.. في المتوسط مع بروز دور المدن الإيطالية.. وفي الصحراء حيث زاد دور تجار وركلان وبلاد السودان في تجارة عبر الصحراء كثيراً، مقارنة بدور أهل المغرب الأقصى[14].

وتعاظمت أزمة المغرب في التجارة السودانية عندما فتحت معادن ذهب غابة الأكان (Akan Forest) في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي لأنها في الجنوب الشرقي إلى مالي، وبعيدة جدا عنها.. صحيح أن خط جني –تمبكتو ظل يغذي المغرب بهذا الذهب، لكن الحجم الأكبر

لتجارة عبر الصحراء بدأ تدريجياً يتحول إلي محور غاد - تادمكة.. هنا لم يجد حكام مالي وسيلة إلا السيطرة على مخارج طرق الصحراء تماما كالذي قام به حكام غانا من قبل.. فتوسعت مالي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وحرص حكامها على السيطرة على جنى وتمبكتو وغاو وتادمكة.. فأفلحوا وتنفذوا إلى مطلع القرن التاسع الميلادي/ الخامس عشر الهجري.. عندما ثار عليهم أهل سنغي. وحينها بدأ النمط الثالث بالظهور وزادت معضلات المغرب مع تجارة السودان وتعاظمت، وكان لابد للعلاقات بين المنطقتين أن تتفجر.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن هذه التطورات صاحبتها أخرى متدرجة في الساحل والصحراء الإفريقية الليبية والمغرب.. لعل من أبرزها نمو دور برنو(Bornu) في تجارة عبر الصحراء خاصة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وتزايدت أهمية الصحراء الإفريقية الليبية، ودخول إفريقية الحفصية في هذه التجارة بصورة لم تعرفها أيام الأغالبة الذين بلغت في عصرهم ازدهارا اقتصادياً لم تعرفه منذ أن خرب الوندال عمرانها.. وتوج كل ذلك بقيام علاقات حفصية برناوية متينة.. وكل هذا يؤكد أن قرب الطريق من مناطق الإنتاج إلى عالم البحر المتوسط هو المحدد الأول لحجم التجارة المتدفقة من ذهب السودان.. ولهذا فقد محور تمبكتو- سجلماسة كثيراً بظهور ذهب غابة الأركان، ومن ثم تأثر دور المغرب الأقصى سلبياً، ولكن بصورة تدريجية.

النمط الثالث: كان القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حاسماً في بلورة هذا النمط.. وأصبح واضحاً جلياً في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.. فكلما زاد الإنتاج في ذهب غابة الأكان تقلص

دور محور جنى/ تمبكتو- سجلماسة شيئاً ما.. وتعاظم دور محور غاو- تادمكة كثيراً.. بيد أن هذا المحور الأخير فقد دوره متسارعاً وحل محله محور جديد، أبطاله تجار الونقراوة الذين ربطوا تجارة ذهب الأكان بأرض الهوسا ومن ثم برنو.. فظهر خط تجاري جديد من مناطق الإنتاج إلي أرض الهوسا وانغزغمو عاصمة برنو الجديدة، ومن كانو إلي أغدس عبر آير إلى فزان منتهياً عند طرابلس. ورافق هذه التطورات تحولات سياسية أثرت على العلاقات المغربية «السودانية « وفجرتها..

لقد تطورت سنغى وبسرعة مدهشة من دولة « مدينية « صغيرة إلى دولة كبرى لم تعرف البلاد السودانية لها نظيراً من حيث عظم الأراضي التي ضمتها (أنظر الخارطة II).. ولكنها سقطت بالسرعة ذاتها التي تكونت بها.. وهذا ما جعل كثيراً من الدارسين يظنون ويؤكدون أن سقوطها جاء نتيجة للغزو السعدي.. وهذا الرأي تدحضه دراسة العوامل الداخلية، علاوة على بحث المسالة من منظور علاقة قيام الدول الكبرى في البلاد السودانية. بمناطق انتاج الذهب من جهة، وسعيها للتحكم في مخارج ومداخل طرق عبر الصحراء وملائمة ذلك السعي لقدرات الدولة فتنجح فتتمدد أو تفشل فتنهار..

كانت بداية دولة سنغي دولة مدينية زراعية صغيرة في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي[15]. ثم صار لها ذكر في تجارة عبر الصحراء، لا سيما مع تاهرت الرستمية عبر تادمكة[16].. ولكنها لم تسيطر على مداخل مناطق إنتاج الذهب مثل رصيفتيها غانا ومالي.. وعندما واتتها الفرصة مع ذهب غابة الأكان كانت مالي منتعشة ماتزال، فأخضعت سنغي من ختام القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي إلى مطلع القرن التاسع الهجري/

الخامس عشر الميلادي، وذلك في سعيها للسيطرة على مخارج ذلك الذهب ومداخل الصحراء المتصلة بها [17]..

بيد أن، سنغي لم تستكن للسيطرة المالكية.. فأقامت أسرة حاكمة جديدة قادت ثوراتها، هي أسرة سُنّي (Sonni) أو شيء (Shi). وتحقق استقلالها عن مالي في مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وظلت تتوسع حتى تحولت مع سُنّي علي (Sonni Ali) -870-898هـ /1464-1492م- من دولة مدينية صغيرة متجانسة السكان إلى دولة كبرى متعددة الأعراق ومختلفة اللغات وذلك بالسيطرة على مجرى نهر النيجر من كوكيا إلى جنى، مع سعي حثيث لإخضاع الهضبة الداخلية وأراضي الموسى.. إلا أن هذا التوسع وضع سني علي وجهاً لوجه مع عناصر مهددة للاستقرار فأودت بجهوده.. من ذلك الفلاني غرباً والطوارق شمالا والموسى جنوباً.. فسقطت الأسرة مع خلفه بثورة أسكيا (Askia) الحاج محمد في سنة 898هـ/1493م الذي أسس أسرة باسمه، وهي التي شهدت نهاية سنغي مع الجيوش السعدية [18].

والناظر في الخطوط العامة للأحداث التاريخية في سنغي على عهد أسرة أسكيا يجدها لا تختلف في شيء عن تلك الملامح العامة التي تشكلت في عصر سني علي، حتى أن ذلك الناظر ليظن أن ذلك العصر ما هو إلا تمهيد لحكم تلك الأسرة.. فورث النزعة التوسعية ذاتها. فتوسعت في الغرب إلى ولاتا ومنها إلى وسط الصحراء الغربية إلى تَغَازا (Taghaza)، وفي الشرق إلى أرض الهوسا وشمالاً إلى آير.. سعيا وراء التحكم في مخارج ذهب الأكان ومداخل تجارة الصحراء.. ولدوافع اقتصادية أخرى.. فتصادمت مع حقائق عالم القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي في منطقتها.. فكان الفشل محتوماً..

لقد أخفقت حملاتها ضد الموسّي فلم تجد طريقا مباشراً إلى الأكان، وتصدع وجودها في محور تمبكتو / جني فانهار الأمن في المنطقة فتحول الونقراوة الذين يتاجرون في ذهب الأكان نهائياً إلى بلاد الهوسا، وكان ذلك التحول قد بدأ في منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي [19]. وتهاوت محاولات أسرة الأسكيا في السيطرة على بلاد الهوسا، وغدت كِبِ (Kebbi) مستنقعا وحلت فيه جيوش سنغي.. كما قادت محاولاتهم للتوسع هناك في آير(Air) إلى التصادم المباشر مع دولة برنو التي كانت تعيش أزهي أيامها، وتنامت قوتها السياسية والعسكرية منذ ختام القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مع على غاجي (Ali Gaji) حتى وصلت ذروتها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي مع ماي إدريس علما (Mai Idris Aloma) ونجحت في الحفاظ على علاقات متوازنة ومسالمة مع القوتين اللتين سيطرتا في الشمال الإفريقي، العثمانيين والسعديين [20]. هذا بينما دخلت سنغي في صراع مسلح مع السعدنيين، سببه المباشر معادن ملح تغازا.. وحقيقته أن سنغي كانت كالثور المجروح جرحا قاتلا فهاج واندفع في كل صوب.. في الوقت الذي لم يكن أمام السعديين من سبيل إلا التوجه جنوبا طلبا لقوة اقتصادية مظنونة في سنغي لحسم صراعهم مع الأتراك والبرتغاليين ثم الاسبان في الشمال الأفريقي.

ولا يزال السؤال قائماً.. هل وجد جيش المنصور السعدي بقيادة جودر سنغي قوية فهزمها وأنهى وجودها؟. وهل وجد فيها الرصيد الاقتصادي، خاصة الذهب، الذي أمل فيه المنصور؟

لقد انهار جيش سنغي في معركة سُنْكِي (Sunkiya) شمال غاو دون مقاومة تذكر.. ولم يكن ذلك بسبب الأسلحة النارية وحدها، فلم يجد جيش المنصور السعدي دولة، لا إدارياً ولا سياسياً.. فقد كانت فترة الجيل الثاني من الأسرة الحاكمة فترة صراع دام، وكل واحد منهم أخذ السلطة غلبة، وصرف جل وقته في تصفية خصومه الذين هم إخوته غالباً [21].. وانهارت السلطة في الولايات.. وتمزق الجيش جراء الهزائم المتوالية في الجبهات الآنفة الذكر.. وتبع ذلك انهيار الاقتصاد الداخلي الذي يقوم على إنتاج الأرز لانعدام الأمن من جهة ونضوب معين العبيد الذين كانت تقوم عليهم زراعة سنغي [22]..

وتزامن كل هذا مع تحول طرق تجارة الذهب إلى بلاد الهوسا.. ولكن الأخطر هو تحول تلك التجارة تدريجياً من الساحل والصحراء إلى خليج غينيا.. لقرب مناطق الإنتاج، ونجاح الكشوف الجغرافية الأوربية، فوصل البرتغاليون إلى ذلك الخليج في ختام القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي وبنوا مركزاً تجارياً بين نهري فولتا وكومي (Komoe) في سنة 1482م، وأطلقوا عليه اسم المينا (Casa da Mina) متاجرين عن طريق الونقراوة (الديولا) مع مناطق إنتاج الذهب في الأكان.. وكانت هذه التجارة تزداد حجما مع توالي السنين، ويتضح ذلك من تصاعد عدد المراكز التجارية الساحلية التي شيدوها، فقد بلغت أربعة في ختام القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وقفزت إلى ثلاثة وثلاثين مع ختام القرن الحادي عشر / السابع عشر.. وفي الوقت ذاته نشأت دول في منطقة الغابة، أقواها دولة الأشانتي (Ashante) [23].

وكلما تنامت التجارة نحو البحر ضعف التوجه نحو جني خاصة وأن المنطقة لم تكن آمنة في القرن العاشر / السادس عشر، وبالنتيجة تدهورت تجارة عبر الصحراء وفقدت بريقها القديم أيام دولتي غانا ومالي، وهكذا عندما وصلت جيوش المنصور السعدى إلى غاو، لم تكن بمدينة إنتاج للذهب ولا مركزاً مهماً لتجارته العابرة.. وما أرسله جودر ثم محمود زرقون إن هو إلا من المصادرات، وليس من تجارة دائمة مستمرة.. وهذا ما تؤكده رواية السعدي عن دخول القائد محمود تمبكتو سنة 1593/1002، فقضى على الثورة فيها، ثم صادر أموال فقهائها. يقول السعدي: «ثم دخل الباشا محمود.. في ديارهم، فرفع جميع ما فيهن من الأموال والمتاع والأثاث، اللاتي لا يحصيها إلا الله، ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودائع.. وأفسد الباشا محمود جميع المال، اشتتها شذر مذر، وتكرم بها للرماة، ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد إلا مائة ألف ذهبا»[24].

من هذا يتضح أن الصراع السعدي مع سنغي بواعثه تضارب المصالح.. والغريب في الأمر أن المصالح هذه المرة متخيلة عند السعديين.. ومتوهمة في حال حكام سنغي .. فانتحرت سنغي وما قتلت.. وغرق الأول في بحر صحراء لا ساحل له، وتاه في أرض أصابها التصحر، فما رجع بطائل.. ذلك لأن مناطق الإنتاج تحولت إلى ساحل خليج غينيا ولم تعد الصحراء تربطها بعالم المتوسط.. وغدت رمالا عازلة بين المنطقتين..

ولكن تلك العلاقات أفرزت روابط وأواصر، فيها تداخل العناصر البشرية والدين والثقافة، وهذه الروابط هي التي بقيت متحدية الجغرافية. تداخلت في الساحل من غرب إفريقيا عناصر بربرية وعربية وسودانية.. وجاء ذلك عن طريقين، الهجرات والتجارة.. فأفرزت الأولي تعايشا، ونتج

عـن الثانيـة تمـازج.. ولا ريـب أن الجفـاف والتصحـر مـن أهـم العوامـل التـي دفعـت بمجمـوع أهـل الصحـراء مـن جهـة السـاحل إلـى التدفـق جنوبـاً.. فيقـع الاحتـكاك بـين أهـل الاسـتقرار وأهـل التبـدي والنجعـة.. هـذا مـا حـدث بـين جدالـة والتكرور، ولمتونـة وغانـة، ومسـوفة في عصـر المرابطـين وسـنغي عندمـا توسـعت في متعطـف نهـر النيجـر عصـره في السـني والاسـكيا..

وهـذا صـراع اجتماعـي تجـده بـين أهـل السـودان أنفسـهم، وسـبقت الإشـارة إلـى تهديـد قبائـل الموسـى والفلانـي إلـى مناطـق الاسـتقرار في دولـة سـنغي الكبـرى.. غيـر أن هـذا الصـراع دائمـا تفتـر حدتـه مـع وجـود القـوة السياسـية القاهـرة.. أو يهـدأ مـن ذاتـه نفسـه بضـرورة تَحَكُم النواميـس الاجتماعيـة.. وفي الحالـين تتعايـش عناصـره، ذلـك لأن أهـل البـداوة لا يتوغلـون في حـزام السـافانا الطويلـة.. ولهـذا لـم يهـددوا دولـة مالـي في مركزهـا.. وقل مثل ذلك عن هجـرات العـرب الهلاليـة مـن الصحـراء إلـى منعطـف نهـر النيجـر مـع بنـي حسـان.. وحـول بحيـرة شـاد جهـة الصحـراء مـع العـرب الشـاوية (Shuwa Arabs).

وتذكـر المصـادر إشـارات غيـر قليلـة عـن هـذا التعايـش.. منـه مـا أورده البكـري عـن السـننكي، وهـم أهـل غانـا، ولمتونـة وجدالـة وجذولـة وبنـي وارث ومداسـة، وهـي بربريـة، مـع سـكان رأس المـاء.. ويذكـر ابـن خلـدون أن قبائـل صنهاجـة خضعـت لسـلطان مالـي ودفعـت لـه الخـراج (26).. وفي أجوبـة أسـئلة أسـكيا معلومـات مهمـة عـن اختـلاط عـرب سـنغي بأهلهـا(27). ويقـول بـارث (Barth) أن الطـوارق توغلـوا في عمـق سـنغي، واختلطـوا بأهلهـا، وتمازجـوا وتصاهـروا، وظهـرت قبائـل هجينـة[28].

ولا يحتجـن أحـد بقضيـة الـرق، فهـي مسـألة اجتماعيـة كانـت بـين أهـل السـودان أكثـر، ولـم يكـن الرقيـق سـلعة مهمـة في تجـارة عبـر الصحـراء بالصـورة التـي ترسـم

في الدراسات.. خاصة وأن الرقيق في مثل تلك الصحراء لا يستفاد منهم في حمل الأثقال، والجمل منهم أفضل، والرقيق الأبيض في المغرب أرخص.

وإذا كان الغالب على الهجرات التعايش لا التمازج، فإن التجارة كانت وسيلة تمازج مستمرة.. وقد يقال بأن ذلك كان في حالات فردية.. إلا أن أنساق تجارة عبر الصحراء جعلتها ظواهر جماعية.. واللافت فيها أن مداخل طرق الصحراء في أطرافها الشمال إفريقية غالباً ما تكون الحد الأقصى لتجار المشرق.. ويشير ابن حوقل في وضوح إلى تجار العراق من بصريين وكوفيين وبغداديين في سجلماسة [29]، وقد زارها، ولا يذكر مثل ذلك عن أودغست.. بينما يغلب على تجارة عبر الصحراء البربر، ثم البربر والعرب، وأصبحوا معاً أكثر سكان مداخل الصحراء من ظرفها الجنوبي، مثل أودغست وولاتا وتمبكتو وتادمكة..

كانت أودغست مدينة كبيرة آهلة، وسكانها من عناصر شتى ومناطق مختلفة، يقول البكري أنهم من «أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، وهم أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار» [30].. وفي موضع الآخر يقول بأنهم من زناتة والعرب [31].. وتشاكلها تادمكة نسبيا[32]. وولاتا ثم تمبكتو بصورة كبيرة وفقا لرواية السعدي [33].. وربما كانت عواصم الممالك السودانية شبيهة بذلك ، عندما تكون في الساحل ، لا السافانا الطويلة .. فمن النوع الأول كومبي صالح، عاصمة غانا، وغاو قاعدة سنغي.. وفي كليهما قسمان.. أحدهما للملك وحاشيته وأهل الإدارة، والثانية للرعية وغالبتها مسلمة.. بيمنا لا تجد مثل هذه الظاهرة في عاصمة مالي.

لقد دخل الإسلام عن طريق التجارة والتعايش والتمازج وانتشر.. وهناك عوامل أخرى ساعدت على الانتشار من أهمها دور الدولة عندما يسلم

حاكمها.. ولكن هذا الدين انبثقت عنه ثقافة كانت ولا تزال من أهم عناصر التواصل بين المغرب والبلاد السودانية.. وهي العنصر الرابط الدائم بين المنطقتين. وأمر هذه الثقافة صار من بدهيات المعرفة التاريخية ولا يحتاج إلى فضل بيان.. ولعل ما يحتاج إلى شيء من التوضيح أن هذه الثقافة مغربية في جذورها، ذلك لأنها في فترة تكوينها كانت الصلات التجارية والبشرية مع المغرب هي الغالبة.. غلبت عليها ابتداء من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي مؤثرات إفريقية مصرية ومشرقية عامة، لا سيما في عصر ازدهار تلك الثقافة[34]. وغني عن القول إن الجذور المغربية واضحة في قراءة ورش، والخط المغربي، والفقه المالكي.. بيد أنه من المهم الرجوع إلى الإطار المعرفي الذي صاغ تلك الثقافة، وهو مغربي.. فإذا كان الخوارج هم من أدخل الإسلام إلى الساحل.. فإن ذلك لم يضع لبنات الثقافة الإسلامية «السودانية «.. فضلاً عن دور سجلماسة كان هو الأعظم حسب ما جرى بيانه مع طرق التجارة ومحاورها.. إن المكون الرئيس للإطار المعرفي عندهم هو الفكر السني.. وهنا يظهر تأثير دور المرابطين التجديدي، إذ بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أصبح مذهب أهل السنة هو مذهب المنطقة العقدي.. ومذهب مالك مذهبها الفقهي..

وبناء على ذلك كان التوجه العلمي في فترة التكوين نحو المغرب أكثر من غيره.. فإذا نظرت في تراجم الشيوخ والعلوم التي درسوها والكتب التي تلقوا عنها تجدها لا تخرج عما درج عليه أهل المغرب.. ودونك ترجمة محمد بَقْيُعُ، أستاذ أحمد بابا، وقارنه بكتب البرامج المغربية.. فإنك ملاق مصنفات المغاربة واضحة جلية من شروح المدونة ورسالة أبي زيد ومدخل

ابن الحاج وتحفة الحكام لابن عاصم وفرعي ابن الحاجب ومنتقى الباجي ومعيار الونشريسري وشفاء عياض.. ولهذا ليس بمستغرب أن تجد من يصل إليهم من علماء المشرق يشعر بنقص كبير في علمه فيضطر إلى الذهاب إلى فاس لتلقي العلم والعودة ثانية، صنيع ما فعل عبد الرحمن التميمي الذي جاء صحبة منسا موسى[37]..

إن هذا القول يدعو إلى دراسة تراجم الرجال «السودانية « دراسة تفصيلية.. ولا ريب أن مثل هذا العمل سيكشف عن الكثير، خاصة وأن عدداً من كتب التراجم قد توفرت مثل نيل أحمد بابا وكفايته وفتح البرتلي.. الخ.. ودراسة الشخصيات ستوضح قسمات تلك الصلات الثقافية والتبدلات التي حدثت فيها.. وقام د. محمد بنشريفة في هذا المجال بعمل رائد في مقالاته عن أعلام التواصل بين المنطقتين والتي تناول فيها ابن فاطمة والمليانى والجنحاني والدكالي وإبراهيم الساحلي وعبد الرحمن سقين وأحمد بابا [38]..

وحسبك أن تتذكر أعلام فترة التكوين فستجد أن التوجه نحو المغرب بارز.. فبالإضافة لمن ذكروا سابقا تجدر الإشارة إلى عبد الكريم المغيلي والعاقب الأصنمني ومخلوف بن علي بن صالح البلبالي الذي رحل إلى المغرب ودخل بلاد السودان مثل كنو وكَشْنَ وغيرها، ورجع إلى مراكش ودَرَّسَ فيها، ثم رجع إلى مواطنه حيث توفى ... ثم في أواخر عصر التكوين وبعده تجد التوجه نحو تونس والمشرق هو الغالب، ويستمر هذا إلى ان يصل الذروة مع حركات التجديد السودانية في ختام القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي وهو تيار واضح ابتداء من عصر محمد أحمد التازختي المعروف بأَيْدَ التغدي ثم عمر بن عثمان الفلاتي أصلاً البرناوي استقراراً.

وهـذه الأنسـاب في ميـدان الثقافـة والعلـم تؤكـد مـا جـرى تبيانـه في مجالـي الاقتصـاد والسياسـة.

مـن هـذه السياحة القصيـرة يبـرز بجـلاء أن العلاقـات المغربيـة الغـرب إفريقيـة في العصـر الوسـيط قامـت علـى التعـاون والإخـاء لا الخصـام والعـداء إلا حينمـا تتعـارض المصالـح ويتعـذر التوفيـق بينهـا.. وهـو شـاذ القاعـدة.. وكان للمغـرب دور رئيـس في علاقـة البـلاد السـودانية بـأرض الخلافـة، سـواء اقتصاديـاً أو عقديـاً أو ثقافيـاً.. ومـا تغيـر الحـال إلا مـع تغيـر مناطـق الإنتـاج بدايـة ثـم التحـول الرئيـس في ربـط المنطقـة بعالـم المتوسـط بحريـاً بعـد الكشـوف الجغرافيـة.. فضعـف دور الصحـراء عامـة، والقـدر الميسـور كان توجهـه شـمالاً شـرقياً.. والآن في عصـر الثـورة المعلوماتيـة وثـورة الاتصـالات كيـف تعاد صياغة العلاقـات ولهـا مـن روابـط الثقافـة ميـراث، ومـن تعـاون المصالـح تقاليـد؟ هـذا هـو التحـدي المعاصـر الـذي يواجـه المنطقتـين.

الهوامش والتعليقات

(1) انظر: R.C.C Law. "Contacts between the Mediterranean Civilizations and West Africa in Pre-Islamic Times". **Lagos Notes and Records**, 1:1,1967 pp. 52-62; R. Mauny, **Les Siecles Obscurs de I Afrique Noire**, Fayard, 1970, pp. 78-137.

(2) Herodotus, Histories, trans George Rawlinson Dent, 1964, I : Book IV, p. 363; Rhys Carpenter, "A Trans – Saharan Caravan Routes in Herodotus" **American Journal of Archeology**, V. 60, 1956, pp. 231-242.

(3) R. Mauny, **Tableau Geographique de L Ouest Africain au Moyen Age**. Dakar. 1961, pp. 287-9,299.

(4) وفقا لتعريف ليفسكي لهذا المصطلح (أنظر: T. Lewicki; **Arabic External Sources for the History of Africa to the South of Sahara**. London, Curzon Purzon Press Ltd, esp. pp. 7-11).

(5) في دراسة سابقة أشرت إلى أن هناك دراسات حاولت أ، تصور وحدة المنطقة الإفريقية شمال الصحراء وجنوبها، مثل جهود أنتا ديوب (أنظر عز الدين عمر موسى، «الإسلام وإفريقيا » في كتاب **العرب وإفريقيا**، منتدي الفكر

العربي (عمان) ومركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) 1983م-ص71-73.

(6) أنظر عن هذه الصورة المتطرفة عن العلاقات ما يقوله دنستان واي. Dunstan M Wai; **African – Arab Relations in a Universe of Conflict: An African Perspective**, pp. 2-3,22-32. وحاولت في دراسات سابقة استجلاء الأسباب الداعية لبروز هذه الصورة والدوافع الباعثة عليها (أنظرموسى، **المرجع السابق** ص74-77، وأيضا. I.U.A. Musa. "On the Nature of Islamization and Islamic Reform in Bilad as-Sudan up to Sokoto Jihad", **Dirasat**, Amman, the University of Jordan, 1979, V. VI, No. 1, esp. pp. 9-12.

(7) أنظر مثلا، J.S. Trimingham, **A History of Islam in West Africa**, Oxford Univ. Press, 1965, pp. 145,151-152.

(8) موسى، عز الدين، **دراسات إسلامية غرب إفريقية**، الرياض، الجمعية التاريخية السعودية، سلسلة بحوث تاريخية، الإصدار الثاني 1419هـ/1999م، أنظر الفصل الثاني» طريق عبر الصحراء الليبية من المغرب الأقصى (سجلماسة) إلى مصر (البهنسا) في القرن السادس /الثاني عشر «خاصة ص43 وما بعدها.

(9) المرجع ذاته ص66-67

(10) قام الباحث بدراسة تفصيلية لعلاقة المرابطين بغانة وقدمها في ندوة «التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء الكبرى « عقدت في مرتيل – تطوان. المغرب، مايو 1998م.. ثم وسع البحث

وجعله فصلا في كتابه، **دراسات إسلامية غرب إفريقية**، ص7-38.

(11) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، 1995م، ص620-621.

(12) أنظر وصفه عند الإدريسي، **نزهة المشتاق**، تحقيق دوزي، ليدن، 1866م ص162-163.

(13) N. Levtzien, **Ancient Ghana and Mali**, pp, 53,156

(14) أنظر موسى، عز الدين، **النشاط الاقتصادي**، ص304،288.

(15) J.O Hunwick, "Religion and State in the Songhay Empire, 1464-1591" in Islam in Tropical Africa, ed. 1. M. Lewis, London, Htchinson Unv. Lib. For Africa, 1980, p. 124.

(16) راجع T Lewicki, Letat Nord-Africain de Tahert et ses Relations avec le Soudan Occidental a la fin du Ville et au lxe Siecle". **Cahiers Etudes Africaines**, 1962, pp. 513-35.

(17) إن ولكس (Wilks) خير من درس هذه القضية وتأثيراتها السياسية والاقتصادية (أنظر الفصل الأول من كتابه العامل الشمالي في تاريخ الأشانتي (I. Wilks, **The Northern Factor in Ashanti History**, Legon1961)

(18) موسى، عز الدين، **دراسات** ص 68-69.

(19) Goody and M. Mustafa. "The Carvan Trade from Kano to Salaga". **Journal of the Historical Society of Nigeria**. V. III,

.pp 611-616

(20) راجع موسى عز الدين، **دراسات**، ص72-74 والمصدر المذكور فيها

(21) السعدي، **تاريخ السودان**: ص81 وما بعدها، وانظر خاصة المعلومات التي يعطيها عن كل حاكم في بداية حديثه عنه.

(22) موسى، عز الدين، **دراسات**، ص 85 وما بعدها.

(23) درس ولكس هذه المسألة دراسة عميقة، وقد توكأت أساسا على نتائج أبحاثه (أنظر "The Mossi and Akan States to 1800", in J.F.A. Ajayi and Crowder, I. Wilks, **History of West Africa**, Lagos, Longmam, V.I, pp. 413-455).

(24) السعدي، **تاريخ السودان**، ص 171.

(25) البكري، **المسالك**، ص 171،180.

(26) ابن خلدون، **العبر**، ج1 ص263-264.

(27) Barth, H; **Travels**.., V. 4,P307

(28) **أجوبة أسئلة أسكيا**، ص2-3.

(29) ابن حوقل، **صورة الأرض**، 65، 143،144.

(30) البكري، ص158.

(31) **المصدر نفسه**، ص168.

(32) **المصدر ذاته** ص 181-182.

(33) السعدي، **تاريخ السودان**، ص 21.

(34) أنظر موسى، عز الدين، «الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا» **في دراسات إسلامية غرب إفريقية**، 93-130.

(35) انظر عن « فترة التكوين «موسى، عز الدين، **المرجع ذاته**، ص 120 وما بعدها ثم عن الازدهار، ص126 وما بعدها.

(36) السعدي، **المصدر السابق**، ص 45-46.

(37) **المصدر ذاته**، ص47-48.

(38) نشر ضمن كتاب بالعنوان ذاته، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1999م.

(39) انظر أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ترجمة رقم 747.

الفصل الثالث

المغرب العربي وغرب أفريقيا في العصر الإسلامي في كتابات نقولا زيادة

الفصل الثالث

المغرب العربي وغرب أفريقيا في العصر الإسلامي في كتابات نقولا زيادة

أن البحث في أعمال أ.د نقولا زيادة شائق، والنظر العلمي فيها ماتع، لأنه متمدد في التاريخ زماناً ومكاناً، متناولاً موضوعات متعددة ومفردات متنوعة في إطار ثقافي لا يحبسه التخصص الدقيق، ولا يحده التفسير الفلسفي للتاريخ القائم على أحادية العامل الواحد المحرك للظاهرة التاريخية، وذلك بعد أن تجاوز التفسير الغيبي ونظرية «البطل» الكارليلية، ناظراً إلى الحدث التاريخي أفقياً وعمودياً، سابراً غور عوامله القريبة والبعيدة، باحثا في جذوره، متكشفاً نتائجه الآنية والمستقبلية [1].

ومما ساعده في بلورة ذلك التمدد وتوسيع آفاقه أنه بدأ مؤرخاً متخصصاً في تاريخ اليونان والرومان في مرحلة البكالوريوس، وانتهى إلى التاريخ الإسلامي الوسيط في مرحلة الدكتوراه متخصصاً في تاريخ المماليك، ثم قذف به التعليم، في بداية مشواره في التعليم الجامعي في الجامعة الامريكية في بيروت، إلى تاريخ العرب الحديث بخاصة تاريخ المغرب الحديث، مكرساً جهداً مقدراً عليه، تدريساً وإشرافاً وبحثاً وتأليفاً وترجمة، وبه عرف، وبه اشتهر. ويسر له هذا التنقل بين التخصصات الدقيقة المختلفة والمتعاقبة في الزمن استبصار عوامل التأثير والاستمرار والانقطاع، ليس بين الحضارات وحدها، إنما بين حقب الحضارة الواحدة، بل وبين الظواهر التاريخية في الحقبة الواحدة.

ولعل هذا ما يعطي معني لتأليفه كتباً مدرسية، بعد أن نال شهادته الجامعية الأولى ودرّس في الرشيدية والكلية العربية في القدس، ممهداً للبحث عن الجذور للحضارة العربية الإسلامية في قديمها البعيد والقريب، فأصدر كتابه العالم القديم في جزأين (يافا 1945-1946م) ومؤلفه المختار من التاريخ العربي، ونشر جزءه الأول بعنوان وثبة العرب (يافا 1945م)، ومستصحباً التجربة الأوروبية المعاصرة للتجربة العربية الإسلامية، فنشر كتابه عالم العصور الوسطى في أوروبا (القدس 1947م). وذكر أن تدريسه للتاريخ القديم كان يتيح له «توضيح قضية الجذور والزمن»[2].

ثم هناك عامل ثالث رسّخ ذلك التمدد في دراساته التاريخية، مؤثراً على نوعيتها، ألا وهو إحساسه القوى وهو تلميذ يافع، بالعلاقة العضوية بين التاريخ والجغرافية أو الترابط بين الحدث والإنسان والمكان، فأكثر من الرحلات إلى كل المناطق التي درسها أو قرأ عنها أو درّس تاريخها [3]. ولا عجب في ذلك، فهو يقول عن تجوله في البلاد العربية أنه « حبب إلى بلادي وقومي، وأفهمني معني الوطنية أكثر من كل ما سمعت من مدرسي، وقرأت في الكتب»[4].. وتبلور عنده ذلك الحس رويداً رويداً في منهج الدراسة التاريخية. وهذا ما عبر عنه لَّما كتب أول مقالتين له في مجلة المقتطف في عامي1930م و1931م عن معركة مجدو وأسطورة الخليقة البابلية، وشعر معها بأنه سار على طريق البحث العلمي [5].

ويبدو أن هذا الحس الجغرافي فتح له الطريق إلى أدب الرحلة والرحالين، ووجد في ذلك ذاته، فوضع فيه باكورة مؤلفاته. وكان أول كتاب يصدره في هذا المجال هو رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، المقتطف، 1943م)، وجاء في قسمين سوى المقدمة؛ الأول عن الرحلة والرحالين، والثاني عن صور الحياة مقتبسة من رحالي فترة الدراسة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين لافتين للانتباه؛ أولاً؛ لم يحبس نفسه في الرحلة والرحالين المسلمين، وإنما وقف وقفات طويلات عن الرحلة والحج النصراني الأوروبي، والرحالين الأوروبيين زمن الصليبيين وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[6]، فكأنه أراد أن يستشف التأثير والتأثر، والتواصل والتدابر بين الحضارتين في هذا الجنس المصدري، والذي لا توفره المصادر التاريخية التقليدية. ثانياً؛ تبين أن أدب الرحلة والرحالين يصور حراكاً اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وفكرياً لمجتمع الحضارة العربية الإسلامية بصورة تقصر عنها كتب الحوليات والتراجم قصوراً مبيناً، الأمر الذي يستوجب التحول نحو دراسة المدينة في الإسلام لاستجلاء كنه حضارته، ولتبيان روحها. وهذا ما لا تيسره الدراسات العاكفة على السياسة وتقلباتها، وهي السمة البارزة في دراسات العرب المحدثين إلى منتصف القرن الميلادي المنصرم.

من هنا سارت اهتمامات زيادة في شعبتين رئيستين متداخلتين؛ الأولى دراسة الحياة «المدينية» والمدن. وتجلى ذلك في رسالته للدكتوراه عام 1950م، **حياة المدن في سوريا في عصر المماليك المبكر** (بالإنجليزية)، **وكتابه دمشق في عصر المماليك** (بالإنجليزية 1964م وترجمه إلى العربية 1966م)، وكتابه **مدن عربية** (بيروت 1965م). ويلاحظ عليه الحرص على توضيح سمات المدينة الإسلامية وخصائصها منذ انطلاقته الأولى كما هو واضح في الفصل عن المدينة الإسلامية في كتابه **صور من التاريخ العربي**. وأفرد للحسبة والمحتسب دراسة خاصة [7].

وتتمثل الشعبة الثانية في العناية بأدب الرحلة والرحالين العرب الذي أخرج فيه عملين؛ **الرحالة العرب** (القاهرة 1957م) **ثم الجغرافيا والرحلات عند**

العرب (بيروت 1962م). وفي الكتابين يقوم عمله على عن الرحالة ثم تحليل لمعلوماتهم ودلالاتها الحضارية.

وأحسب أن إلمامه بلغات متعددة أسهم بنصيب غير يسير في تمدده في التاريخ زماناً ومكاناً. لقد انفتح على اليونانية والرومانية شيئاً ما في المبتدأ ثم تمكن من الإنجليزية والألمانية والفرنسية. ولهذا تيسر له الاطلاع على دراسات متنوعة، والانفتاح على آراء متباينة ومدارس تاريخية متغايرة، وهو الطُلعة النَهم المثابر على القراءة منذ الصغر، وطوال عمره المديد، فهو موسوعي الثقافة. وقد يأخذ مرجعاً أو غير مرجع، وربما يعتمد على مصدر أو غير مصدر، ويلتهم ما يقرأ ويعيد إنتاجه في أسلوب مغاير، مخاطباً به المثقف العادي في أحاديث إذاعية أو مقالات صحفية أو محاضرات عامة.. وشكل هذا الإنتاج أصول عدد غير قليل من كتبه بالعربية إلا فيما حُكّم من أبحاثه أو نشر بالإنجليزية فهو يصرح بذلك أحياناً، كما في **صفحات مغربية** (بيروت 2002م) **وعالم العرب** (بيروت 1984م) أو تستنتج ذلك من طبيعة المادة وحجمها وطريقة عرضها، كما هو الحال مع **مدن عربية** (بيروت 1965م) **وقمم من الفكر العربي الإسلامي** (بيروت 1987م) **وشخيصات عربية** (يافا 1946م) أو تحسها من أسلوب السرد القصصي كما هو في كتابه صور من التاريخ العربي (القدس 1946م) وأشار إلى ذلك صراحة في مذكراته [8].

إن هذا التفاوت بين أبحاث أكاديمية محكمة وبين مقالات ثقافية ألقى بظلاله على درجة توثيق المعلومات. ففي النوع الأول الالتزام واضح والانضباط تام. أما النوع الثاني ففيه تراوح بين التزام شبه تام أو جزئي أو غائب نهائياً. وحسبك المقارنة بين ذلك في ثلاثة من كتبه المتقاربة

موضوعاً. لقد تناول مسألة السكان في الصحراء والسودان الغربي، ومعاهد العلم، والحملة المغربية على سنغي في كتابه **أفريقيات** (بيروت 2002م) بصرامة منهجه ودقة توثيقة [9] وتناول الموضوعات نفسها في كتابه **أفروسيات: السياسة والدين** ولم يحفل بأي نوع من التوثيق [10]. أما في كتابه **صفحات مغربية** (بيروت، 2002م) فقد اتبع اسلوباً آخر مختلفاً جداً إذ غاب التوثيق تماما، واكتفى بذكر بعض المصادر المختارة[11].

من كل هذا يتبدى أن زيادة ظهر مؤرخاً متخصصاً أحياناً، ولكن موسوعته الثقافية أخرجته من التخصص الضيق إلى مجال الثقافة الواسع، بيد أنه لم يحفل بأن يبحث عن الخيط الناظم لأجزاء التاريخ المبحوث، أو قل إنه لم يرد ذلك، فغدا مؤرخاً مثقفاً.. ولعل من أهم جوانب موسوعيته اهتمامه بتاريخ المغرب وامتداده في غرب أفريقيا. ويحلو له أن يدعو الآمرين بالأفريقيات.. فهل كان مبعث هذا الاهتمام مجرد مصادفة يوم التحق بالجامعة الأميركية في سنة 1949م ولم يجد فرصة لتدريس تخصصه الضيق (المماليك) أو الإسلامي عامة، ومن ثم أكرهته الظروف على تاريخ العرب الحديث والمغرب جزءمنه [12]!؟

إن تلك المصادفة وحدها لن تفسر هذا التحول الكبير في حياة د. زيادة العلمية إلا باستصحاب عوامل عديدة أخرى.

أولاً: عنده نزعة قوية لارتياد المجهول، ورغبة ملحة في تجاوز العقبات، واستعداد فطري لتحقيق الإنجازات، وكلها صقلتها تجارب حيوية عديدة منذ الطفولة.

ثانياً: هو ابن فترة عصيبة وعسيرة في تاريخ العرب الحديث، وتمثل مفصلاً محورياً في تطورهم.. لقد ولد وترعرع واستوت شخصيته واكتملت

معايشاً أهم حدثين في تاريخ المشرق العربي عامة وفلسطين بخاصة؛ الثورة العربية الكبرى وإخفاقاتها، والقضية الفلسطينية بأبعادها وتداعياتها، على الأمة العربية جمعاء، وعلى الشعب الفلسطيني خصوصاً، وبصورة أخص عليه وعلى أسرتيه؛ الكبيرة والصغيرة.

ثالثاً: تفاعله ثقافياً في بيئة الكلية العربية في القدس، طالباً في دار المعلمين، وأستاذا عندما أصبحت كلية عربية، آملاً مع آخرين في تحويلها إلى كلية جامعية، ذلك المشروع الذي أجهضته أحداث 1947م. تلك بيئة حظيت بمعلمين متباينين في مصادر دراستهم وثقافتهم، موحدة رؤاهم العربية، زارعين في طلبتهم بمحاضراتهم ومحاضرات غيرهم التوجه العربي القومي في فلسطين وفي المهاجر والشتات. وكان زيادة منهم متلقياً ثم ملقياً [13].

رابعاً: هو من مسيحيي فلسطين الذين وحدهم والمسلمين» العيش المشترك.. الأصول القبلية المشتركة.. ووحدة الإرث الثقافي ورابطته الأساسية، اللغة العربية»[14]. وهو مسيحي أرثوذكسي، وانتماء الأرثوذكس العروبي معروف، ودورهم في العروبة مشهور معلوم، خاصة في فلسطين. أنظره يقول: «فأنا العربي المسيحي الأرثوذكسي، عربي في ثقافتي – البسيط منها والمعقد، الحديث منها والقديم - عربي في نظرتي إلى الأمور، أي أنني أراها من منظار عربي أداته وآلته هي اللغة العربية. ومن هنا كنت أشعر ببعض الفرق بيني أنا المسيحي العربي وبين المسيحي الأوروبي»[15].

فلا غرو أن يصبح د. زيادة عروبياً وقومياً عربياً، والقومية عنده «مرتبطة بالأمة الثقافية» مقتفياً أثر هانيز (Haynes) في كتابه **الحركات القومية**. فالقومية عند زيادة هي العنصر، والرقعة ذات الوحدة الجغرافية الواضحة الحدود، والتاريخ (الإرث الثقافي المشترك) واللغة.. وهذا كله جعل من العرب

أمة واحدة في نظره [16]. وبهذا المفهوم الثقافي دعا إلى القومية العربية والوحدة العربية بالمحاضرات والكتابة والمشاركة في الجمعيات الثقافية دون أن يلج دهاليز العمل السياسي الذي شاح بوجهه عنه [17]، وقبل أن تتأدلج فكرة القومية العربية، لا سيما في منتصف القرن الماضي. فقدم محاضرة في سنة 1945م في اللجنة الثقافية العربية في القدس عنوانها» القومية العربية أصولها ومنحاها». ولعله من أول من كتب عن القومية العربية والوحدة العربية، وذلك في العام نفسه. واستمر نشاطه هذا بعد أن انتقل إلى بيروت حيث عقد في أيامه الأولى حلقة خاصة لعدد من الشباب القومي تتناول القومية العربية بالدرس والتحليل. [18]

ويلاحظ المرء تأثير هذا المفهوم القومي الثقافي على دراساته التاريخية من وجهتين:

الأولى: للتاريخ العربي أدوار زمنية أربعة، التاريخ القديم، العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، وأخيراً القومي [19]. من هنا لا يجد حرجاً في وصف الحضارة العربية في العصر الإسلامي بأنها حضارة عربية التعبير، إسلامية الروح والصبغة والصيغة، وعالمية المحتوى [20]. ولهذا فإن لهذه الحضارة في جناح العرب المغربي حضوره في مؤلفاته الأولى، وحسبك ابن جبير [21] وابن سعيد [22] وابن بطوطة [23] في **كتابه رواد الشرق العربي**.. ومثله، ولكن بصورة أوسع الفصل الثاني عن «العرب في جزر المتوسط» من كتابه **صور من التاريخ العربي** [24].

بيد أن هذا الحضور سيزيد قوة واتساعاً عندما توجه د. زيادة نحو دراسة المغرب العربي الحديث، وكان لا بد من البحث عن الجذور في الفترة الإسلامية. من هذا التوازن بين المغرب والمشرق الذي تجده في مقدمته

التاريخية لكتابه **الرحالة العرب** [25]، بينما غاب المغرب عن مقدمته عن المجتمع العربي لكتابه **صور من التاريخ العربي**، ومقدمة **كتابه رواد الشرق العربي** [26].

وفي كتابه ذلك يبرز دور الرحالة المغاربة فيما يوردونه عن وصف المشرق والمغرب معاً، مثال ذلك الإدريسي وابن جبير [27] وابن سعيد والعبدري [28]، وبصورة أكثر بروزاً ما يورده عن ابن بطوطة [29].

ويمثل كتابه **الجغرافية والرحلات عند العرب** نقلة نوعية حيث يقف مع المشارقة في معلوماتهم الجغرافية عن المغرب، صنيع اقتباساته عن ابن حوقل [30] والمقدسي [31] وأبي الفداء [32] والقلقشندي [33] علاوة على ما اعتاده من نقول عن مغاربة مثل ابن جبير والعبدري[34] وشيخ الرحالين، ابن بطوطة [35]، ويضيف إليهم لأول مرة التيجاني [36].

ويتلقاك التوازن بصورة لا فتة في كتابه **مدن عربية** حيث كتب عن أربع وعشرين مدينة (يلاحظ أنه دمج صيدا وصور، والمعرة وحماة) منها إحدى عشرة مغربية. وقل مثل هذا عن دراسته عن الحسبة والمحتسب واعتماده على ابن عبدون والجرسيفي والسقطي [37].

أما الوجهة الثانية المتأثرة بمفهومه للقومية فهي حدود العالم العربي الجغرافية من الخليج إلى المحيط ومن جبال طوروس إلى البحر العربي.. ولعل هذا ما يوضح ضعف وجود دراسات أندلسية عنده، فإذا استثنينا الفصل الرابع من كتابه **صور من التاريخ العربي** المعنون «أندليسيات» [38] لا نكاد نظفر بشيء ذي غناء عن الأندلس الإسلامية إلا من ذكر لمدينة واحدة اندلسية، هي إشبيلية، بين المدن الأربع والعشرين التي تناولها [39]، وترجمة لعلمين أندلسيين من قمم الفكر العربي هما ابن رشد وابن طفيل [40]. ويبدو أن مرد هذه الظاهرة يعود

إلى أن الأندلس سقطت سياسياً وانتهت عربياً وإسلامياً؛ حضارياً وثقافياً فلم يبحث عن جذور المغرب العربي الحديث فيها. وتتضح أهمية هذه الملحوظة عندما يرى المرء اهتمامه بغرب إفريقيا في العصرين الوسيط والحديث، وذلك ربما يرجع إلى أن هذا المنطقة ظلت ثقافياً جزءاً من المغرب الإسلامي ثم العربي إلى أن أضعف الاستعمار الأوروبي الروابط وقطعها.

والآن لعله من المفيد النظر في الأعمال الرئيسة التي أوقفها على دراسة المشرق أو المغرب أو أي موضع في إحدى المنطقتين، تأليفاً وترجمة، دون الإشارة إلى الأعمال الرئيسة الأخرى، وهي مهمة، ولكنه تناول فيها المنطقتين معاً. وإذا استبعدت **شاميات وأفريقيات وأفروسيات** تجد القوائم الآتية:

أ. بالعربية:

2. برقة الدولة العربية الثامنة (بيروت 1950م).
3. محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال (القاهرة 1958م).
4. تونس في عهد الحماية من 1881–1934م (القاهرة 1963م).
5. صفحات مغربية (بيروت 1966م).

ب. المترجمة إلى العربية:

3. تاريخ المغرب في القرن العشرين، روم لاندو، (بيروت 1963م).
4. ليبيا الحديثة دراسة في تطورها السياسي، مجيد خدوري،(بيروت 1966م).
5. فاس، تورنو (بيروت 1967م).

ج. بالإنجليزية:

1. Urban Life in Syria Under the Early Mamluks(Beirut,1953).
2. Wither North Africa,(Aligarh,1957).
3. Origins of Nationalism in Tunisia,(Beirut,1962).
4. Damascus Under the Mamluks,(Norman,1964)*.
5. Syria and Lebanon, (Beirut,1965).
6. Sanuisiyah, A study of A Rvivalist Movement in Lslam, (Leiden,1968).

*هذا ترجمه المؤلف نفسه إلى العربية.

ويمكن تفريغ هذه القوائم في الجدول الآتي:

المنطقة	المشرق		المغرب		
الحقبة	الإسلامي	الحديث	الإسلامي	الحديث	
العدد	2	1	1	9	
المجموع	3		10		13

واضح من هذا الجدول تحول د. زيادة من الدراسات المشرقية إلى المغربية، ونسبتها 77%، ونسبة المشرقية 23% فقط. وظل اهتمامه في المشرق بالعصر الإسلامي أكبر من عنايته بالمشرق العربي الحديث. بيد أن اللافت بصورة كبيرة أن اهتمامه بالمغرب العربي الحديث طغى طغياناً عظيماً على عنايته بالمغرب في العصر الإسلامي، فحظ الأول 90%، ولم

يحظ الثاني بغير 10%، وهو كتاب وحيد عن فاس المرينية، وهو مترجم إلى العربية.

والسؤال الذي يفرض نفسه أين موقع المغرب الإسلامي وتابعه الثقافي في غرب أفريقيا (السودان الغربي) في أعمال د. زيادة، لا سيما وأنه القائل بضرورة دراسة جذور الظواهر لمعرفتها معرفة معمقة!؟

يتفاوت تناول د. زيادة لتاريخ المغرب العربي وغرب أفريقيا (السودان الغربي) في العصر الإسلامي تفاوتاً كبيراً، في موضوعاته وحجمها ونوعها وأهميتها وطرق عرضها، ولعله من الأوفق النظر إلى الموضوع من خلال ثلاث مجموعات، المغرب، غرب أفريقيا (السودان الغربي)، ثم العلاقات بين المنطقتين.

لقد عرض موضوعات المغرب العربي الحديث في كتابيه، **أفريقيات: دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي** (بيروت 2002م)، والآخر **صفحات مغربية** (بيروت، 1966م ثم 2002م). ومن المفيد الإشارة في البدء إلى أن حجم المادة عن المغرب العربي الحديث تمثل أربعة أضعاف مادة المغرب الإسلامي وضعفي مادة السودان الغربي، وهذا إحصاء له دلالته عن اهتماماته. وستتضح المفارقة أيضاً بالنظر إلى المحتوى والمضمون.

لقد تناول موضوعات عن المغرب العربي في العصر الإسلامي في كتاب **أفريقيات** موزعة على مدخل وقسمين. عرض في المدخل موجزاً لتاريخ العرب في شمال إفريقيا إلى القرن الثامن عشر من خلال فقرات متعددة (ص 37-67) والمتصل منها بموضوعنا ثلاثة، هي: الأول والثاني والرابع. سرد في الأول مختصراً أو هيكلاً تاريخياً للدول التي تزامنت أو تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي مع خاتمة فيها إجمال لمآثرها الحضارية.

ومرحل في الثاني فترة الأدارسة باختصار شديد ووصف عام ولكنه دقيق. وتناول في الرابع تجارة عبر الصحراء. ويتبدى لك أن الموضوعات الثلاثة إن هي إلا محاضرات ثقافية عامة تخاطب المثقف ولا تشفي غليل الباحث الأكاديمي، ولهذه جاءت خالية تماماً من التوثيق.

ويشبه هذا تناوله لموضوعات القسم الأول الذي عرض فيه عرضاً ثقافياً عاماً لاثنتي عشرة مدينة مغربية (ص 107–209) بطريقة لا تصلح إلا أن تكون باباً ثابتاً في مجلة ثقافية، خاصة وأنها خالية من التوثيق [41] باستثناء «فاس» و«الجزائر». ففي الأولي مصادره متعددة، وفي الثانية هوامش مستفيضة ولكنها من مرجع واحد [42] مما يذكرك بقدرته على التهام كتاب وإعادة إنتاجه في ثوب مغاير بهي.

وكانت خيبة الأمل أكبر في موضوعات القسم الثاني (ص 213–326) حيث عالج ثلاث عشرة مفردة، وكلها عن المغرب العربي الحديث باستثناء واحدة عن ابن خلدون [43]. وطريقته في الطرح والعرض لا تختلف عما ذكر بشأن مدن القسم الأول.

ويسير على النهج نفسه في عرض مفردات كتاب صفحات مغربية، وهذا لا يستغرب، فقد صرح بما يشي إلى ذلك في تصدير الكتاب، موضحاً أن جل موضوعاته مما سبق نشره في صحف أو مجلات أو أذيع في حلقات. وواضح أن هذا هو الحال بالنسبة لكل من مفردتي معارك الفتح الأولى [44]، ومفردات لخمس تراجم مغربية [45]، ومفردتي مراجعة الكتب [46]. وكلها لا تمثل إلا سدس مادة الكتاب، أما البقية فهي إلى تاريخ المغرب العربي الحديث تنتسب. وهنا أيضا العمل ثقافي عام، وليس بعمل علمي أكاديمي بحثي.. وهو يرمز إلى شخصية زيادة المؤرخ المثقف ويجسدها.

ولو أراد زيادة أن يكون غير ذلك لفعل.. فهو يشير في مذكراته إشارة عابرة عميقة تعبر عن استيعابه لمسيرة تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، ويفصح عن تصور نظام موحد لتلك المسيرة. يقول عن قيام الدول المستقلة المنفصلة عن الخلافة أنها « نتيجة قوة الطرد المركزي (أي قوة الدفع عن المركز) بناء على أسباب منها الديني أو الإثني أو الإداري أو التجاري... يقابلها قوة «اللم» الداخلي... تمثلت بالإسلام... وبالغة العربية التي كانت وسيلته»[47]. ولكن زيادة أبى إلا أن يكون المؤرخ المثقف لا المؤرخ المفكر.

والغريب أن دراساته عن غرب أفريقيا (السودان الغربي) وعلاقاته بالمغرب العربي في العصر الإسلامي اختلفت نوعاً ما، وإن شابهت تلك أحياناً. فقد نالت دراساته هنا حظاً أو فر من الكتابة العلمية المنهجية في كتابه **أفريقيات** التي درس فيه الموضوعين في القسم الثالث (ص 327–376) والرابع (416–377) بالتتابع. لقد تناول غربي أفريقيا (السودان الغربي) في أربعة محاور:

1. حدود الإسلام في أفريقيا (ص 329–335).
2. سكان الصحراء الكبرى (ص 336–358).
3. مع ابن بطوطة في الصحراء الكبرى (ص 359–360).
4. معاهد العلم الإسلامي في السودان الغربي في العصور الوسطى (316–376).

ولا يحتاج أي مطالع للكتاب لجهد يذكر ليتبين أن المحورين الأول والثالث، إن هما إلا تلخيص للمحور الثاني [48]، وجردت منه الهوامش، وصيغت المادة المختصرة بأسلوب يناسب صحيفة أو مجلة ثقافية.

أما المحوران الثاني والربع فهما بحثان علميان يتناولان موضوعات شغف المؤلف بهما كثيراً من خلال كتب الجغرافية والرحلات، وهما السكان والمدن، ومصادره فيهما مستفيضة نسبياً، وموضوعاتها شاملة ومتفرعة، وتوثيقها طيب [49].

بيد أن المؤلف عاد إلى مفردات هذين المحورين مرة أخرى وجردها من الهوامش التوثيقية، وأعاد صياغتها بما يناسب جمهور المثقفين لا الأكاديميين، وأصبحت في شكل حلقات إذاعية أو مقالات صحفية ثقافية، فجاءت في كتابه **أفروسيات** على النحو التالي:

1. من المحيط الأطلسي إلى بحر الرمال (ص 11–15).
2. الدول الأولى في غرب افريقيا (ص 16–21).
3. الدولة التابعة والدويلات الشتى (ص 22–27).
4. طرق ابن بطوطة وقافلته (ص 28–33).
5. الصحراء التي تعطي للفراغ معناه (ص 34–40).
6. العلماء في السودان الغربي ومراكزهم (ص 41–46).
7. سلطان مالي حاجاً (ص 52–60).

ولا يختلف ما انتهجه في معالجة موضوع العلاقات المغربية مع غرب أفريقيا (السودان الغربي) عن هذا النهج. لقد تناول فيه موضوعاً رئيساً واحداً» المغرب والسودان الغربي في أيام المنصور الذهبي» (ص 379–416). وهو دراسة علمية من خلال أربعة محاور هي، امبراطورية سنغي، تجارة الصحراء، قيام الدولة السعدية، أسباب الحملة ومقدماتها، وأخيراً الخاتمة.

واستقصى مصادره والدراسات عن موضوع في زمان كتابة بحثه استقصاء مناسباً، وحلل المعلومات تحليلاً طيباً، وعرض مادته بأسلوب علمي رصين، موثقاً لها توثيقاً واضحاً [50]. غير أنه عاد في كتابه أفروسيات ولخصلها وجردها من الهوامش والتوثيق وعرضها عرضاً ثقافياً عاماً كما فعل من قبل مع محوري السودان الغربي. [51]

من كل هذا يستطيع المرء أن يخلص إلى أن د. نقولا زيادة المؤرخ المثقف أطل على المثقفين كثيراً في موضوعاته عن المغرب العربي وغرب أفريقيا (السودان الغربي) في العصور الإسلامية. وانداحت بفضله معلومات تاريخية وثقافية كثيرة وواسعة مستفيضة لجمهور المثقفين العرب عن المنطقتين في تلك الحقبة.. ولكن المؤكد أن د. زيادة المؤرخ المحترف- إذا جاز التعبير- لم يظهر إلا في مقالتين علميتين عن غرب أفريقيا (السودان الغربي)، حول السكان ومراكز العلم، ومقال آخر عن العلاقات المغربية السودانية وقتئذ. وهذا الاهتمام يتسق مع ما سبق ذكره من عنايته في التاريخ بتواصل العرب مع غيرهم، وعنايته بالأحداث المفصلية المؤثرة على ما يأتي بعدها. هذه الملحوظة الأخيرة تفسر سر اهتمامه بالحملة السعدية على السودان لأن يفشلها أذن مؤذن الكون بنهاية عالم الصحراء الكبرى التجاري معلناً بداية عالم البحر، مختتماً العصر الوسيط، مفتتحاً العصر الحديث. ومع هذا كله ارتد د. زيادة المؤرخ (المحترف) إلى المؤرخ المثقف الموسوعي، ووجد نفسه في الثقافة. ونشر بأسلوبه الخاص، الثقافة التاريخية بصورة غير مسبوقة ولا معهودة، ولا يستطيعها المؤرخ المتخصص القابع في دهاليز تخصصه الدقيق، ولا يريدها المؤرخ المفكر الباحث عن الخيط الناظم لحركة تاريخ الأمة. لهذا فإن د. زيادة نموذج لمؤرخ فريد يعز نظيره، أسهم بنصيب كبير في تيسير الثقافة التاريخية وإذاعتها في الناس بكافة وسائط الاتصال.

الهوامش

(1) أنظر نقولا زيادة، **أيامي**، بيروت، 1992م، جـ1: 280، 2: 51-54.

(2) أيامي،2 :64.

(3) راجع **المرجع ذاته**، 1: 125-126، 2: 104-110، 2: 171 وما بعدها،2: 210وما بعدها، زيادة، **صور من التاريخ العربي**، القاهرة، دار المعارف 1946م،80-141.

(4) المرجع الأخير، ص81.

(5) المرجع **نفسه**2: 55.

(6) زيادة، نقولا، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، القاهرة، المقتطف، 1943م، ص 47-66، 98-147.

(7) زيادة، صور، ص 229-236، وايضاً في كتابه **الحسبة والمحتسب في الإسلام**، بيروت المطبعة الكاثوليكية، 1962م، ص11-19، وكذلك أيامي.

(8) **ايامي**، 2: 62

(9) أنظر زيادة، **أفريقيات**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 2002م، ص 357-358، 375-376، 413-416.

(10) زيادة، **أوفرسيات: السياسة والدين**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 2002م، ص11-59.

(11) زيادة، صفحات **مغربية**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 2002م، ص206-264.

(12) أيامي، 2: 193.

(13) أنظر المرجع نفسه،1: 66 وما بعدها، 185وما بعدها، 2: 61-62.

(14) المرجع نفسه،2: 141.

(15) المرجع نفسه،1: 293.

(16) المرجع نفسه،1: 266-268، 2: 67-69، 72.

(17) المرجع نفسه،2: 123.

(18) المرجع نفسه، 2: 62، 123، 196.وأنظر ايضاً له « الجذور التاريخية للثورة العربية الكبرى»، ضمن دراسات في الثورة العربية الكبرى، عمان، الشركة الأردنية العالمية، لا.ت، ص13-36.

(19) أيامى، 1: 268.

(20) زيادة، **رواد الشرق**، 8-9. من الطريف أن بعض المغاربة كانوا دائماً يسألونني عنه، وكان الفقيه التطواني يلقبه بالحاج، ولا يصدق بأنه نصراني من فرط إلمامه بالثقافة العربية في أصولها الإسلامية، خاصة القرآن الكريم.

(21) المرجع نفسه، 80-83.

(22) المرجع نفسه، 90-92.

(23) المرجع نفسه، 92-94.

(24) زيادة، صور، 43–79.

(25) زيادة، الرحالة العرب، 9–34.

(26) انظر صور، 1–42؛ رواد الشرق، 5–44

(27) زيادة الرحالة العرب، 56–97.

(28) المرجع نفسه، 102–120.

(29) المرجع نفسه، 122–194.

(30) زيادة، الجغرافية والرحلات، 39–42.

(31) **المرجع نفسه**، 130–134.

(32) **المرجع نفسه**، 71–77.

(33) **المرجع نفسه**، 124–129.

(34) **المرجع نفسه**، 167–180.

(35) **المرجع نفسه**، 187–194.

(36) **المرجع نفسه**، 200–211.

(37) انظر زيادة، **الحسبه والمحتسب في السلام**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1962م، 56–59، 122–153.

(38) زيادة، **صور**، 142–175.

(39) زيادة، **مدن عربية**، 45–50.

(40) انظر زيادة، **قمم من الفكر العربي الإسلامي**، بيروت الأهلية للنشر والتوزيع 1987م.

(41) زيادة، **أفريقيات**، 125.

(42) **المرجع نفسه**، 177–178.

(43) **المرجع نفسه**، 221–224.

(44) زيادة، **صفحات مغربية**، 213–326.

(45) **المرجع نفسه**، 23–54.

(46) **المرجع نفسه**، 153–155، 170–172.

(47) زيادة، **أيامي**، 2: 213.

(48) مثلاً قارن في **أفريقيات**، ص 359–360 بما سبق أن ذكره في ص 348–354.

(49) انظر عن التوثيق **أفريقيات**، 357–358، 375–376.

(50) أنظر عن التوثيق، **المرجع نفسه**، 413–416.

(51) **أفروسيات**، 47–51 (الحملة المغربية). ايضاً **صفحات مغربية**، 41–54 (المنصور الذهبي).

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

قامت العلاقات المغربية غرب الأفريقية فى المبتدأ على تجارة عبر الصحراء، غير أن ثقل طرقها متغير من الغرب إلى الشرق بتغير مناطق الذهب فى غرب أفريقيا. إلا إن المعلومات المتوافرة فى حركة السكان والفكر والثقافة أوضحت أن هناك الكثير الحضاري الدائم، من هذا إن عصر التكوين للثقافة العربية الإسلامية فى غرب أفريقيا مغربي بامتياز، مع أن ثقل تجارة عبر الصحراء انتقل من طرقها الغربية إلى الطرق الوسطى ثم الشرقية.

أفرز هذا التمازج الحضاري تلاقحاً لغوياً وفكرياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً. وكانت العلاقات قائمة على التعاون والتعايش لا العداء والتخاصم. ولم يختل الميزان إلا مرة واحدة مع غزو السعديين لسنغي ولم يجدوا مبتغاهم لأن التجارة العالمية تغيرت دروبها.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation